

التفسير الموضوعي " بين الفكرة والتطبيق "

بقلم: د. عبد الغفار عبد الرزيم محمد يوسف
أستاذ التفسير وعلم القرآن المساعد
بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

تقديم

القرآن الكريم دستور هداية، يرسم للإنسانية طرائق حياتها ويربي أفرادها وجماعاتها، وهو كتاب تشريع يشرع لها أحكام الوقائع والأحداث؛ لتحقيق كافة مصالحها التي تقع بين طرفي العدل والرحمة. وهو كتاب مؤسس لعقيدها ونظام تعبدها، وقائد يسودها بتعاليمه وتوجيهاته: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُنَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

ومنهج القرآن في عرض هذه الحقائق وغيرها منهج واضح قويم لا لبس فيه، ولا غموض، ولا التواء فيه، ولا انحراف عن الغرض الذي يسعى إليه، والهدف الذي يرمي إليه، فاي معوق لهذه الغاية أو مبعد عنها، وأي تكلف في فهمه أو غلو فيه، من شأنه أن يحيد بالناس عن الطريق، أو يبعد بهم عن الغاية، أو - على الأقل - يكون قصرا للمفاهيم على فئة دون فئة، فإذا بالقرآن يصعب فهمه أو مناله ويعسر إدراكه فيفتح بذلك بابا لأعدائه؛ لينظروا فيه نظرا سيئ أكثر مما يحسن، فتزداد المزاغم وتقل الحقائق. وهذا إهدار لكرامته وإفساد لعلاقته، وأي سبيل يوصل إلى ذلك مرفوض؛ لأن القرآن الكريم نزل بالتوضيح والبيان، وخاطب الجميع بالحجة والبرهان.

من أجل ذلك مست الحاجة ودعت الضرورة أن تمهد الدراسات القرآنية سبيل الاتصال بالهدي الرباني، وأن تضع الناس أمام كتاب ربهم حتى تقوم الحجة عليهم ولا يكون أمامهم سبيل إلى جمود أو نكران، فكانت فكرة الموضوعية في

تفسير القرآن الكريم بعيداً عن أي تعقيد أو تعسير، وتخليصاً من أي غلو أو تقصير.

وهذا بحث يعني بهذا الجانب عناية مركزة من حيث نشأة هذه الفكرة، وتتبع مراحل تطورها حتى تصبح حقيقة واقعة في الدراسات القرآنية الحديثة، وهو لذلك بحث طريف وشائق غير أنه دقيق وشائك. أما طرافته وشوقه: فهو أنني لم أسبق إليه - حسب علمي - وأما دقته وشوقه، فترجع إلى ما قد يكتنفه من مزية أقدام ومضلة أفهام.

والله تعالى المستعان، وحسبنا صدق النية وإخلاص الطوية.

والبحث يبدأ بالحديث عن المرحلة الأولى لفهم القرآن، ثم لما وقع فيه الناس من اختلاف في تفسيره، وكيف كانت المبالغة أو المذهبية في تفهيمه، وكيف تنبه لهذا قليل من علمائه، ثم يتناول البحث الفكرة من مصادرها ويتطور معها مرحلة إثر مرحلة.

كان ذلك يشكل موجزاً قريب المنال مدعماً بالسند الفكري، والتحقيق العلمي مع الإشارة لما قد عارضها من أفكار، ثم توصلنا هذه المراحل إلى تحديد مفهوم تعريفي للفكرة الموضوعية، فإذا بها تتضح واقفة على قدمين معلنة عن نفسها في يقين، حتى نصل إلى تقرير ما وصلنا إليه من انتقالها من المرحلة النظرية إلى المرحلة التطبيقية، لتأخذ طريقها في الذبوع والانتشار محققة أهدافها في ثقة واطمئنان.

وهذا لا يعدو أن يكون جهداً يضاف إلى جهود هي في جملتها تسعى لخدمة القرآن الكريم، وهو شرف دونه أي شرف وكرامة دونها أية كرامة.

والله من وراء القصد، وهو الموفق والهادي إلى أقوم سبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

بين يدي البحث:

نزل القرآن الكريم على قلب محمد ﷺ؛ لينقذ البشرية من ضلالها ويهديها إلى أقوم سبيل، فهو كتاب هداية وبشارة وإنذار، كما أنه كتاب نور ورحمة وروح وحياة. يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا

الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ [الشورى: ٥٢]. ولا ريب أن الرسول ﷺ قد قام بالتبليغ والبيان، فبين الرسول القرآن للناس، ودعاهم إلى التدبر والتفكر لقوله تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

ولقد أخلص الصحابة رضوان الله عليهم فيما بلغهم من بيان للقرآن علماً وقراءة وعملاً، بشكل يجعل من علاقتهم بالقرآن انموذجاً فريداً للناس جميعاً، هذه العلاقة التي تقوم على الربط بين العلم والعمل. قال أبو عبد الرحمن السلمي: «الناس كانوا يقرؤون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً»^(١)، وكان هذا شأن الصحابة والتابعين مع القرآن الكريم دون تكلف، أو تعسف، أو تجرأ على تأويل، أو تفسير ليس عليه دليل.

حيث يقول ابن تيمية: «الاختلاف في التفسير من جهة الاستدلال أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم.

أحدهما: قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها.

الثاني: قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده من كان من الناطقين بلغة العرب من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن والمنزل عليه والمخاطب به.

فالأولون راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان، والآخرين راعوا مجرد اللفظ، وما يجوز أن يريد به العربي من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به لسياق الكلام.

ووقع كل من الفريقين في الغلط، وكان خطوهم في الدليل والمدلول. ومن هؤلاء الذين وقعوا في الغلط فرق الخوارج والروافض والجهمية والمعتزلة والقدرية والمرجئة وغيرهم، وهؤلاء صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم واتجاه مناهجهم، كتفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم، وتفسير القاضي عبد الجبار، وتفسير

(١) «تفسير الطبري» بتحقيق شاکر: (٨١/١).

الرماني، وتفسير الكشاف^(١). وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه تارة من العلم بفساد قولهم وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن^(٢).

وهذا إجمال يحتاج إلى نوع تفصيل يتضح به ما نهدف إليه من بيان قبل أن نتدرج بالفكرة من حيث بدأت وتتطور معها كيفما تطورت، وإن أولى وأهم ما يلفت نظرنا من الذين وقعوا في الغلط كما سماهم ابن تيمية فرقة المعتزلة، التي تعتبر رأساً وعلماً في سائر الفرق التي كان لها أثر بارز في تفسير القرآن، كذلك الاتجاه الصوفي الذي نحا منحى آخر أغرق في الغرابة والبعد كل الإغراق والابتعاد.

لذلك كان لزاماً عليّ أن أتناول هذا الجانب بشيء من التفصيل.

حفل القرنان الثالث والرابع بالكثير من المتكلمين خاصة أهل الاعتزال الذين عنوا بتفسير القرآن في وقت مبكر، وإن كانت عنايتهم في المقام الأول كانت تتجه نحو التشابه من القرآن، فهذا أبو علي الجبائي (ت ٣٠٣هـ)، وهو من أشهر رجال الاعتزال، يقول عنه تلميذه أبو الحسن الأشعري وعن منهجه في التفسير: «ورأيت الجبائي ألف في تفسير القرآن كتاباً أوله على خلاف ما أنزل الله عز وجل، وعلى لغة قريته المعروفة بجبّى بين البصرة والأهواز، وليس من أهل اللسان الذي نزل به القرآن، وما روى في كتابه حرفاً واحداً عن أحد من المفسرين، وإنما اعتمد على ما وسوس به صدره وشيطانه». وقد وضع الأشعري تفسيره الكبير رداً على تفسير شيخه، وتصحيحاً له، ونقضاً عليه على عادته في الرد على من يصفهم بأهل الزيغ والبدع، وأسماه: «تفسير القرآن والرد على من حالف الإفك والبهتان»^(٣).

ومن أصحاب الجبائي، القاضي عبد الجبار الهمداني الذي كتب تفسيراً كبيراً

(١) جميع هذه التفاسير غير مطبوعة سوى تفسير الزمخشري «الكشاف»، [المجلة].

(٢) انظر: «مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية» تحقيق د. عدنان زرور، بتصرف: (ص ٨١)، وما بعدها.

(٣) «الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير» تحقيق د. عدنان الزرور: (ص ١٣٣) - ط (١) الرسالة.

سمي «بالمحيط»، وقد أشار إليه ابن العربي فيما بعد وابن تيمية والداودي وغيرهم، فذكر ابن العربي أنه يقع في مائة مجلد، وأنه قرأه في خزانة المدرسة النظامية ببغداد، وعرفه ابن تيمية بالتفسير الكبير^(١)، ويعتمد القاضي على تفاسير من سبقه من المعتزلية، كالجبائي، وأبي مسلم الأصفهاني، وأبي القاسم البلخي، وأبي بكر الأصم، وأبرز ما يوضح لنا منهج القاضي في التفسير بعض كتبه التي حققت ومنها كتابه «متشابه القرآن»، والذي يعتبر أهم كتب القاضي. وأوضح كتب المعتزلية في الكشف عن منهجهم في التفسير، حيث جعل أوله: العقول: هي أقوى ما يعلم به الفرق بين المحكم والمتشابه، ولهذا قام بتأويل الآيات التي تخالف بظاهر أدلة التوحيد والعدل، فأولها على أصول العربية بما يطابق هذه الأدلة، أو بما يطابق شواهد العقل. ويتضح هذا تمام الوضوح عند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، يدل على أن هذه الأمور كلها مباحة، وأن لنا التصرف في جميعها بقوله: «أنه تعالى خلق ما في الأرض في الجملة للعباد لكي ينتفعوا به، فالظاهر في الجملة لا يخالف ما ثبت بالدليل»، ثم يقول: «فأما من جهة التفصيل فلا بد من شرط ولا فرق بين أن يكون منطوقاً به أو معروفاً بالعقل، وهو أن لنا التصرف فيه ما لم يؤد إلى مضرة على وجه».

ثم يؤكد نزعه الاعتزالية عند قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]: «في آية الصوم ما يدل على أنه تعالى لا يريد بالعباد الكفر، ولا يعذبهم في الآخرة؛ لأنه تعالى إذا امتن علينا بأنه لا يريد بنا العسر الذي هو عمل المشقة بالصوم رحمة بنا ورأفة، فكيف يجوز أن نتصور أنه يريد مع ذلك بالعبد أن يكفر ويخلد بين أطباق النيران»^(٢). ومثل هذا يقال في الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤هـ) من أعلام القرن الخامس، وأبي الحسن بن إبراهيم الحوفي، وجار الله الزمخشري في القرن السادس.

(١) «الحاكم الجششم ومنهجه في التفسير» تحقيق د. عدنان الزرور: (ص ١٤١) - ط (١) الرسالة.

(٢) انظر «متشابه القرآن» للقاضي عبد الجبار، تحقيق د. عدنان زرور: (ص ٣٧ - ٤٣) - ط (١) - دار التراث.

وجملة القول أن الفكرة التي رادت وقادت هؤلاء جميعاً إلى القول في القرآن بغير حق. فكرة إطلاق القول بأن نصوص القرآن ظنية الدلالة، بحيث أدى ذلك إلى قطع النصوص عن سياقها، وعن الروح العام، والهدف الذي ترمي إليه آيات الذكر الحكيم، مما أدى بلا شك إلى إثارة جدل ونقاش ما كان أغناهم عن الخوض فيها. وإن انتصر لهم قائل: بأنهم قد خدموا الإسلام بالدفاع عنه من أهواء وزيف وضلال لو ترك لأدى إلى فساد كبير، فهذا شيء وذاك شيء آخر، وليس هذا موضع البحث الآن.

والوصف الجامع لهذه المذاهب في تفسير القرآن ما أشار إليه ابن تيمية مما سبقت الإشارة إليه، ومعلوم بداهة أن الغلو في فهم القرآن الكريم يكون صارفاً عنه، موسعاً شقة الخلاف، مجافياً للهدي الرباني الذي جاء به.

ولا يبعد عن هذا ما ذهب إليه الاتجاه الصوفي في التفسير، حيث بعدوا به بعداً شديداً عن الهدف الذي يسعى إليه، كما فعل أهل الفرق والمذاهب، أو المناهج المتعددة في النظر والفهم والتدبر لآيات الله. فهذا صدر الدين القونوي يقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من فاتحة الكتاب: «الحمد لله من مقام التفصيل والجمع لا الأحدية، ولا يصح بين متماثلين، بل لا بد من علو المحمود على الحامد من حيث هو محمود، بالنسبة إلى الحامد من حيث هو حامد حال الحمد. وعلى أي وجه ظهر الحمد فإنه من حيث صورته لسان من السنة الكمال، فهو في البداية أشار إلى كمال قصد الحامد في نفسه، وإلى كمال مبدئية ظهور حكم القصد من كون الحامد متوجها لإظهار ما شرع فيه بالحمد، وهو أيضاً تنبيه على معرفة الشيء المحمود من الوجه الذي بعثه على الحمد، وبالحال الموجب له ذلك. إلخ كلامه»^(١).

عندئذ يحق لنا أن نقول بيقين أن هذا الجو المملوء غموضاً وإبهاماً أو غلواً وإنكاراً، قد ضاعت معه معالم الطريق الذي رسمه القرآن مع ما قد شابه من ركाम المناهج الجدلية، واليونانية، والفوضى الفكرية التي خلفها تطبيق هذه المناهج في الفكر الإسلامي عامة، وفي الدراسات القرآنية بصفة خاصة. من هنا كانت

(١) «إعجاز البيان في تاويل أم القرآن» لصدر الدين القونوي، تحقيق عبد القادر عطا: (ص ٢٧١)، ط - دار الكتب الحديثة.

الحاجة ماسة إلى فهم يخلو من غلو أو بعد أو إبهام.

ولست في حاجة إلى توضيح أنني لا أقصد بكل ما إشرت إليه من حقائق مؤكدة رفض هذا الجهد، أو التقليل من شأنه في جانب من الجوانب الفكرية، أو العقلية. ولكنني أقصد إلى غرض واحد وهو: أن الغلو في تفسير القرآن وطرح المفاهيم متأثرة بظروف أصحابها، ومناهجهم في البحث والنظر يخضع الآيات ويلوي عنقها بشكل يبعد بها كل البعد عن الغرض الذي نزلت من أجله. فإذا صح أن هنا سبلاً وطرقاً للمذاهب العقلية، فإن أهدى السبل وأقوم الطرق هو طريق القرآن الذي يهدي إلى أقوم سبيل، ويهدي أن هذه المفاهيم المشار إليها لا تهدي إلى أقوم سبيل، والله عز شأنه يقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

بداية الفكرة الموضوعية:

نشأت فكرة الموضوعية صغيرة محدودة المفهوم ثم أخذت طريقها إلى الظهور والوضوح؛ بسبب مداومة البحث والنظر؛ وبسبب تطور المراحل عند أهل الفكر والرأي، كلما كانت الفكرة تستحق ذلك من وجهة نظر علمية هادفة، فالفكرة الموضوعية بدأت بمسمى المناسبة بين الآيات، أو الربط وإحكام الصلة، أو التناسق والترابط بشكل يجعل من الآيات سلسلة مؤتلفة الحلقات تأخذ كل واحدة منها بحجز الأخرى؛ لتعطي صورة مشرقة البيان متناسقة الأغصان، فإذا بالقرآن يأخذ مكانه من القلوب بكل تمكن وعرفان ليدل بذلك على صدق الإيمان. وهذا في حد ذاته مطلب أساسي من مطالب القرآن.

يقول الزركشي في «البرهان»: «وقال الشيخ أبو الحسن الشهرستاني أول من أظهر ببغداد علم المناسبة، ولم تكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري (٣٢٤هـ)، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآي لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه، وما الحكمة

في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزري على علماء بغداد؛ لعدم علمهم بالمناسبة^(١).

ويشير أبو الحسن العامري (ت ٣٨١هـ) إلى ذلك بقوله: «وأما تأليف المعاني فإنه خرج مخرجاً عجيباً يجتمع في الجزء منه الشبيه بما هو موجود في الكل. أعني أنه لا يقرأ الإنسان منه عدة آيات إلا وقد ورد منه على الأبواب الاعتقادية والعبادية والمعاملية والزجرية، بل وعلى الأبواب الأدبية العقلية وأخبار الأمم الماضية على بلاغة ميسرة للذكر، ووجازة مسهلة للحفظ، ومعان لو بسطت لاستغرقت الأخلاق والمطامير - أي الكتب والدفاتر -»^(٢).

إذا تقرر هذا، فإن القارئ سيحس بنقلة تصاعدية في الفكرة الموضوعية لدى الإمام الباقلاني (ت ٤٠٣هـ)، حيث يشير محققه في مقدمته إلى ما يساعد على انضاج الفكرة التي هي موضوع البحث. يقول: «من أهم ما يسترعي النظر في منهج الباقلاني لدراسة إعجاز القرآن، اعتبار الوحدة الفنية التي تتضمن موضوعاً واحداً. ويظهر هذا من تناوله بالتحليل سورة بتمامها يتدرج فيها؛ لينظر ما تنطوي عليه من خصائص في النظم، لا تقتصر على مجرد روعة استعارة أو بلاغة تشبيه يرد في آية أو عبارة قصيرة. وإنما إعجازه منصب عليه جملة لا تفصيلاً. فالسورة لا الآية أصغر وحدة فنية موضوعية في القرآن يمكن الحكم عليها بإعجاز النظم، أو البلاغة وروعة البيان؛ لأنها يمكن أن تتوفر لها شروط الإعجاز السلمية».

إلى أن قال: «ونخرج من تحليل السورة بنتيجتين، أولاهما: أنه لا يصح الاعتماد على مجرد النظرة الفردية في آية آية، أو كلمة دون معرفة الموقع لتلك الآيات والكلمات في السور، وفي المعنى العام الذي يسلكها. وثانيهما: رسم منهج في النقد يعتمد على التحليل والفهم للنص»^(٣).

(١) «البرهان في علوم القرآن» للزركشي: (١/٦٢).

(٢) «الإعلام بمناب الأعلام» لأبي الحسن العامري، تحقيق د. أحمد غراب: (ص ١٣٤)، ط - تراثنا.

(٣) انظر بتوسع «الانتصار لنقل القرآن» تحقيق د. زغلول سلام: (ص ٣٦)، وما بعدها، ط - الإسكندرية.

عندئذ نتقل بالفكرة على هذا النحو نقلة أخرى من الباقلائي إلى الغزالي (ت ٥٠٥هـ) حيث يقول الغزالي: «سر القرآن، ولبابه الأصفى، ومقصده الأقصى دعوة العباد إلى الجبار الأعلى رب الآخرة والأولى خالق السموات العلى والأرضين السفلى وما بينهما وما تحت الثرى. فلذلك انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع: ثلاثة منها هي السوابق والأصول المهمة، فهي تعريف المدعو إليه، وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه، وتعريف الحال عند الوصول إليه».

إلى أن قال: «وإذا تفكرت وجدت الفاتحة على إيجازها مشتملة على ثمانية مناهج، فسقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، نبأ عن الذات، وقوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ نبأ عن صفة من صفات خاصة، وخاصيتها أنها تستدعي سائر الصفات من العلم والقدرة وغيرهما، ثم تتعلق بالخلق، وهم المرحومون تعلقاً يؤنسهم ويشوقهم إليه ويرغبهم في طاعته. إلخ»^(١). فهذا يعتبر فهماً جيداً ومُعِيناً للباحثين عن تطور الفكرة الموضوعية في كل مرحلة من مراحل التاريخ.

ثم جاءت إشارة خاطفة تدل على وجود الفكرة لدى القاضي أبي بكر ابن العربي (ت ٥٤٣هـ)، يقول ابن العربي: «إن ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة، علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله لنا فيه»^(٢). وابن العربي له تفسير مخطوط يسمى: «قانون التأويل»^(٣).

ومن هذا كله أخلص إلى أن المرحلة الماضية لفكرة الموضوعية كانت مرحلة تمهيد للنضج، وتوضيح للجوانب الهامة؛ لكي تأخذ طريقها نحو الاستواء، والوضوح لدى الباحثين والفاقيين لكتاب الله؛ بغية إبراز روعة الهدى القرآن في سياقه، واتساقه، وقربه من كل القلوب دون التواء أو غموض.

(١) «جواهر القرآن» للغزالي: (ص ٩)، ط - المكتبة التجارية - القاهرة.

(٢) من كتاب «سراج المريدين» نقلاً من كتاب «البيان القرآني» د. محمد رجب البيومي: (ص ١٧٨).

(٣) يوجد منه قسم كبير بدار الكتب المصرية.

مرحلة ابن تيمية في الفكرة الموضوعية:

تعتبر مرحلة ابن تيمية وما بعدها مرحلة اتجاه نحو التطبيق في الفكرة التي تدرجت نحو النضوج من القرن الرابع الهجري حتى القرن الثامن ، ومرت بتلك الأطوار التي سبقت الإشارة إليها بشكل موجز ودقيق ، فابن تيمية إمام في التفسير ليس له نظير، وناقد حصيف لمن سبقه من المفسرين بشكل لا مجال فيه لمرية أو تشكيك، فهو قدير على تبين خطأ كثير من المفسرين، وتوهين بعض أقوالهم، ويشهد بذلك الصفدي، كما جاء في «الوافي بالوفيات»: ينقل عن بعض العلماء أن ابن تيمية رحمه الله كان آية من آيات الله في التفسير والتوسع فيه؛ لعله يبقى في الآية المجلس والمجلسين، وينقل عنه قوله: «إني وقفت على مائة وعشرين تفسيراً استحضر من الجميع الصحيح الذي فيها». وكان يقول: «ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير ثم أسأل الله الفهم، وأقول: يا معلم آدم وإبراهيم علمني».

أما منهج ابن تيمية في التفسير، فيقول عنه الدكتور عدنان زرزور: «ويبدو أنه بدأ في السجن يكتب في التفسير على هذه الطريقة التي ربما قربت من التفسير الموضوعي في بعض المواطن. وأدرك رحمه الله ما فتح الله عليه من جديد في فهم القرآن في جو السجن الذي اشتدت عليه وطأته في آخر عمره، وأدركه فيه الأجل فقال: وقد فتح الله عليّ في هذه المرة من معاني القرآن، ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن»^(١).

ويؤكد هذه الحقيقة الدكتور محمد السيد الجليلند يقول: «إن الرجل لم يتناول آيات السورة الواحدة بنفس الترتيب الموجود في المصحف، ولم يعن بمشكلات الإعراب والبيان، ولا بمشكلات اللغة عموماً إلا إذا عرضت له تأكيداً لمعنى، أو ترجيحاً لدلالة معينة للكلمة على دلالة أخرى قد تراد منها، وإنما صرف جهده إلى البحث عن حلول ناجحة تلمسها في القرآن، لمشكلات عصره وقضايا مجتمعه الذي عاشها واكتوى بنارها». إلى أن قال: «وكان تفسيره بذلك أقرب

(١) «مقدمة في أصول التفسير» لابن تيمية، تحقيق د. عدنان زرزور: (ص ١١)، ط - دار القرآن.

ما يكون إلى التفسير الموضوعي للقرآن، إن لم يكن هو كذلك وسوف يتأكد للقارئ صدق هذه الملاحظة فيما بعد^(١).

وغني عن البيان كيف أن هذه الفكرة التي استوت على عودها لدى ابن تيمية، وظهرت بوضوح في تفسيره وأفكاره واتجاهاته العلمية، ودونك ما قاله عند تفسيره لسورة البقرة كنموذج يدل على ما وراءه من تفسير ابن تيمية، يقول ابن تيمية: «لما كانت سورة البقرة سنام القرآن، وأكثر سورة أحكاماً، وأجمعها لقواعد الدين وأصوله وفروعه، وهي مشتملة على ذكر أقسام الخلق المؤمنين والمنافقين، وذكر أوصافهم وأعمالهم، وذكر الأدلة الدالة على إثبات الخالق سبحانه وتعالى، وعلى وحدانيته، وذكر نعمه وإثبات نبوة رسوله ﷺ وتقرير المعاد، وذكر الجنة والنار وما فيهما من النعيم والعذاب.

ثم ذكر تخليق العالم العلوي والسفلي، ثم ذكر خلق آدم عليه السلام وإنعامه عليه بالتعليم وإسجاد ملائكته له وإدخاله الجنة، ثم ذكر محنته مع إبليس وذكر حسن عاقبة آدم عليه السلام.

ثم ذكر المناظرة مع أهل الكتاب مع اليهود وتوبيخهم على كفرهم وعنادهم، ثم ذكر النصارى والرد عليهم وتقرير عبودية المسيح، ثم تقرير النسخ والحكمة في وقوعه.

ثم بناء البيت الحرام وتقرير تعظيمه وذكر بانيه والثناء عليه، ثم تقرير الخنيفة ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وتسفيه من رغب عنها ووصية بنيه بها، وهكذا شيئاً فشيئاً إلى آخر السورة.

فختمها الله تعالى بآيات جوامع مقررة لجميع مضمون السورة، فقال تعالى : ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٨٤)، فأخبر تعالى أن ما في السماوات وما في الأرض ملكه وحده لا يشاركه فيه مشارك، وهذا يتضمن انفراد بالملك الحق والملك العام لكل موجود، وذلك يتضمن توحيد ربوبيته وتوحيد ألهيته، فتضمن نفي الولد والصاحبة والشريك؛ لأن ما في

(١) «دقائق التفسير» لابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد السيد الجليند: (٨/١)، دار الأنصار.

السموات وما في الأرض إذا كان ملكه وخلقه لم يكن له فيهم ولد ولا صاحبة ولا شريك .

ثم قال الإمام ابن تيمية: « ولما كان تصرفه سبحانه في خلقه لا يخرج عن العدل والإحسان وهو تصرف بخلقه وأمره. وأخبر أن ما في السموات وما في الأرض ملكه فما تصرف خلقا ولا أمرا إلا في ملكه الحقيقي. وكانت سورة البقرة مشتملة من الأمر والخلق على ما لم تشتمل عليه سورة غيرها.

ثم أخبر تعالى أن ذلك صدر منه في ملكه: قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٨٤). فهذا متضمن لكمال علمه سبحانه وتعالى بسرائر عبادته وظواهرهم، وأنه لا يخرج شيء من ذلك عن علمه، كما لم يخرج شيء ممن في السموات والأرض عن ملكه فعلمه عام وملكه عام.

ثم أخبر تعالى عن محاسبته لهم بذلك، وهي تعريفهم ما أبدوه أو أخفوه، فتضمن ذلك علمه بهم وتعريفهم إياه. ثم قال: ﴿ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. فتضمن ذلك قيامه بالعدل، والفضل، فيغفر لمن يشاء فضلا، ويعذب من يشاء عدلاً، وذلك يتضمن الثواب والعقاب المستلزم للأمر والنهي المستلزم للرسالة والنبوة. ^(١) إلخ كلام ابن تيمية.

فإذا كان هذا هو ابن تيمية في منهجه الموضوعي لتفسير القرآن، فإن أولى من يتحدث عنه بعده ابن قيم الجوزية، ولا عجب في ذلك فهو تلميذه وصديقه وأقرب الناس إلى فهم منهجه وإتباع أثره. ذلك أنه دعا إلى النظر في كتاب الله تعالى بفكر وقلب وتدبر يورث العبد مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، ويثبت قواعد الإيمان ويشيد بنيانه ويريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، فكان هذا من فهم ابن القيم لمنهج ابن تيمية في التفسير، وكان لهذا الفهم أثره لدى ابن القيم عندما اتجه إلى التفسير الذي انتهج فيه منهج شيخه ابن تيمية، ومع ذلك لم يؤلف تفسيراً كاملاً للقرآن يمكن أن يقال عنه تفسير ابن القيم، وإنما كان ينظر إلى بعض الآيات نظرات التفكير والتدبر على نفس المنهج

(١) «دقائق التفسير» تحقيق د. محمد الجليلند: (١/٢٩٣ - ٢٩٥)، ط - دار الأنصار.

الذي سار عليه شيخه ابن تيمية.

يقول محمد أويس الندوي الذي قام بجمع الآيات التي فسرهما ابن القيم في مؤلف مستقل أطلق عليه «التفسير القيم»^(١) يقول: «ومن يجب استثنائه من هذا الاطلاق من بين المفسرين علامتان شيخا الإسلام الحافظان ابن تيمية الحراني وتلميذه ابن قيم الجوزية رحمهما الله تعالى، فقد توفرت فيهما المؤهلات العلمية والمواهب العقلية التي تجعل من كل واحد منهما المفسر الكامل المستكمل لأداته وصفاته».

أما عن الاتجاه الموضوعي في التفسير عند ابن القيم فأية ذلك: أنه عند تفسيره للمعوذتين قال: «والمقصود الكلام على هاتين السورتين وبيان عظيم منفعتهما وشدة الحاجة، بل الضرورة إليهما، وأنه لا يستغنى عنهما أحد فنقول والله المستعان: قد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول، وهي: أصول الاستعاذة، فإذا كان أحدهما نفس الاستعاذة، والثانية المستعاذ به، والثالثة المستعاذ منه».

وقد فعل ابن القيم نفس الشيء في بداية تفسيره لسورة الفاتحة قال: «اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال وتضمنتها أكمل تضمن، فاشتملت على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها، وهي الله والرب والرحمن. وبنيت السورة على الإلهية والربوبية والرحمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مبني على الإلهية، ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على الربوبية، وطلب الهداية إلى صراط المستقيم بصفة الرحمة، والحمد يتضمن الأمور الثلاثة، فهو المحمود في إلهيته وربوبيته ورحمته والثناء والمجد كمالان لجله.

وتضمنت إثبات المعاد وجزاء العباد على أعمالهم حسننها وسيئها، وتفرد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل وكل هذا تحت

(١) وقد جمع الأخ : يسري السيد محمد ، تفسيراً كاملاً في خمس مجلدات ، سماه «بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن القيم» ، ط - دار ابن الجوزي في السعودية [المجلة].

قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾. ^(١) إلخ كلام ابن القيم.

فأنت واجد من ابن القيم، واحدا من الذين عرفوا هذا المنهج وساروا عليه، وكان هدفاً من أهداف تفسيرهم للقرآن.

وإذا تجاوزنا الحديث عن ابن القيم؛ لوجدنا أن أقرب من تشرب فهم هذا المنهج، وركز فيه القول عن المفاهيم السائدة التي يختلف فيها الناس إلى ثلاثة أقسام هو الإمام الشاطبي بقوله: «بعضهم يفرط في تفهمه، فيحمله على غير ما تقتضيه اللغة العربية كالباطنيين وأشباههم، وبعضهم يفرط في جلب مباحث اللغة فيحمله زيادة عما يقصده العرب كالمحسنات اللفظية وغيرها، فلا بد من طريق وسط: وحدد هو الوسط بأن المسافات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل، وهذا معلوم في علم المعاني والبيان، فلا بد من الالتفات إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية، وما اقتضاه الحال فيها. فإن القضية وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق بالبعض؛ لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد، فلا محيص للمتهم عن رد آخر الكلام على أوله وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرق النظر في أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده.

فلا يصح الاقتصاد في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض إلا في موطن واحد، وهو النظر في فهم الظاهر بحسب اللسان العربي وما يقتضيه لا بحسب مقصود المتكلم». إلى أن قال الشاطبي: «فسورة البقرة مثلاً كلام واحد باعتبار النظم، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بث فيها.

منها ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب، ومنها ما هو كالمؤكد والمتمم، ومنها ما هو المقصود في الإنزال، وذلك تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب، ومنها الخواتم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت وما أشبه ذلك.

ولا بد من تمثيل شيء من هذه الأقسام فيه يبين ما تقدم. فقولته تعالى:

(١) «تفسير المعوذتين»، تقديم عبد الصمد شرف الدين. و«التفسير القيم» جمع محمد أويس الندوي تحقيق محمد حامد الفقي: ط - لجنة التراث.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣) [البقرة: ١٨٣] إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]. كلام واحد وإن نزل في أوقات شتى، وحاصله بيان الصيام وأحكامه، وكيفية أدائه وقضائه وسائر ما يتعلق به من الجلائل التي لا بد منها، ولا ينبغي إلا عليها. ثم جاء قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨] الآية. كلاماً آخر يبين أحكاماً أخرى^(١).

ولا يزال الشاطبي يوضح فكرته القائمة على أساس الموضوعية في تحديده لأغراض سورة البقرة، وكيف يمكن فهمها وأن سور القرآن كلها هكذا، ثم هو يدعو الناس إلى فهم القرآن على هذا الأساس.

ولا ينتهي عجبك من روعة السيوطي في تناوله لهذه الفكرة التي عاد بها إلى حيث بدأت عند النيسابوري بالكلام عن المناسبات بين السورة والآيات، وأفاض في شرحها وفي الحديث عمن تناولها بالدراسة والتأليف والتحقيق، كالإمام برهان الدين البقاعي الذي أفرد لها مؤلفاً خاصاً سماه: «نظم الدرر في تناسب الآي والسور»^(٢)، وآلف السيوطي على غرارهِ جزءاً لطيفاً أسماه: «تناسق الدرر في تناسب السور»، لكنه ما لبث أن وصل بنا إلى أحكام العلاقة بين هذا الفن، وهو التناسب وبين النظرة الموضوعية، فقال تحت عنوان «قاعدة»:

«قال بعض المتأخرين: الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سبقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام، واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاشتراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن. فإذا عقلته تبين لك وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة»^(٣).

(١) الموافقات: (٤٠٩/٣)، وما بعده، ط - دار المعرفة، بتصرف.

(٢) الكتاب مطبوع عدة طبعات [الجلد].

(٣) الإتقان: (١١٠/٢)، ط - الحلبي.

وإذا كنا قد خطونا بالفكرة تلك الخطوات الثابتات في طريق تقديمها وازدهارها، فإنها في طريقها الطويل لم تخل من عقبات واعتراضات أخذت من فكر العلماء ووقتهم، ما جعل منها فيما بعد عامل دفع وحركة وتطور للفكرة؛ لتأخذ بعد ذلك طريقها في ثقة واطمئنان إلى الظهور والانتشار.

فمن أبرز المعارضين لهذه الفكرة العز بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ)، حيث جعل من علم المناسبة علماً حسناً؛ لكنه اشترط أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر، يقول العز بن عبد السلام: «ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيبك يسان عنه حسن الحديث فضلاً عن أحسنه، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة، ولأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض».

فيرد عليه الزركشي فيما بعد قائلاً: «قال بعض مشايخنا المحققين قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً، والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكتملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علم جم، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سبقت له»^(١).

وجاء فيما بعد من يردد كلام العز بن عبد السلام متعللاً بنفس العلل التي قدمها ابن عبد السلام، ذلكم هو محمد فريد وجدي في كتابه «الإسلام دين عام خالده». فيرد عليه الدكتور محمد رجب البيومي بقوله: «هذا القول لا ينهض تعليلاً لعدم الوحدة الموضوعية؛ لأن الثابت الأكيد أن ترتيب الآيات في السورة ترتيب توقيفي من السماء. إلخ»^(٢)، كما سبقت الإشارة إليه من كلام الزركشي رداً على ابن عبد السلام، وكما سيتضح فيما بعد من كلام د. دراز.

وإذا كان ابن تيمية قد صرف جهده إلى البحث عن حلول ناجحة تلمسها

(١) «البرهان» للزركشي: (١/٦٣)، ط - دار الكتب العلمية.

(٢) انظر «بتوسع البيان القرآني» للدكتور محمد رجب البيومي: (ص ١٨٨)، وما بعدها، ط - البحوث الإسلامية.

في القرآن لمشكلات عصره وقضايا مجتمعه، فإن الأستاذ الإمام محمد عبده قد انتهج هذا المنهج الذي أضحي سمة من سمات تفسيره، يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «إنما يفهم القرآن ويتفقه فيه من كان نصب عينيه ووجهه وقلبه في تلاوته في الصلاة، وفي غير الصلاة ما بينه الله تعالى فيه من موضوع تنزيله، وفائدة ترتيله وحكمة تدبيره من علم ونور، وهدى، ورحمة، وموعظة، وعبرة، وخشوع، وخشية، وسنن في العالم مطردة، فتلك غاية إنذاره وتبشيريه».

إلى أن قال: «فكانت الحاجة شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة في وصفه، وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير والهداية والإصلاح، وهو ما ترى تفصيل الكلام عليه في المقدمة المقتبسة من دروس شيخنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى»^(١).

وكان هذا المسلك الفريد من الأستاذ الإمام مطبقاً في تفسيره لجزء (عم) يعرض بين يدي تفسيره للسورة ببيان الوحدة العامة التي تتكون منها آيات السورة والنسق القرآني، الذي يجعل منها وحدة متكاملة تأخذ فيها كل آية بحجز الأخرى، لتكون في النهاية إطاراً يستوعب كل ما جاءت به الآيات؛ ليتجه نحو غاية واحدة لا تنافر فيها ولا اختلاف. (انظر بداية تفسيره لسورة النبأ) والسور التي تليها).

قال الأستاذ الإمام في نهاية تفسيره لسورة (النبأ):

«بعد أن ذكر في قوله: ﴿إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾... إلخ. إن يوم القيامة موعد يفصل فيه بين الحق والباطل وترفع فيه ستر الشبهة عن القلوب.

وبيين كيف يتحول العالم فيه من حال إلى حال، وكيف ينشر الموتى ويحشرون، ثم ذكر أن دار العذاب حد ينتهي إليه أهل الجهالة والجحود في ذلك اليوم الموعود، وأن الفوز موعد لأهل الجنة وهم المتقون.

وأنهى الكلام في تعداد ما أعد لهم بأن ذلك سيكون لهم في ذلك اليوم ووصفه بوصف آخر لم يسبق، وهو أنه يقوم فيه الروح والملائكة صفا عقب

(١) تفسير المنار: (٧/١)، ط - المنار.

ذلك كله بتأكيد أن هذا اليوم حق لا ريبه في أنه يأتي لا محالة، فإذا كان هذا اليوم يوم الجزاء حقاً لا ريب فيه ومرجعاً لا مفر منه. والناس فيه فريقان، فريق بعيد عن الله مدحور مآبه النار ودار العذاب، وفريق مآبه القرب من الله ومنازل الكرامة. فمن كانت له مشيئة صادقة فليتخذ مآباً إلى ربه، فليعمل عملاً صالحاً يقربه به منه ويحلّه محال الكرامة^(١).

وإذا انتقلنا إلى دروس التفسير التي كان يقوم بها في الجامع الأزهر، والتي جمعها رشيد رضا في تفسير المنار. وجدنا أنه يطبق المنهج الموضوعي في عرضه لسورة البقرة وآل عمران وجزء من سورة النساء بشكل يضع فيه الناس أمام كتاب ربهم دون تكلف أو غلو أو إغراق، فجمع بذلك الشيخ محمد عبده حوله من الأبناء والمشتغلين بالدراسات القرآنية في الشرق والغرب، ما مكن لهذه الفكرة كل التمكين، وجعلها تأخذ طريقها نحو الذيوع والانتشار محققة بذلك ما سعت إليه من هدف أو آثار.

نماذج من هذا التفسير:

قال الأستاذ الإمام في مقدمة تفسيره: «التكلم في تفسير القرآن ليس بالأمر السهل وربما كان من أصعب الأمور وأهمها، وما صعب يترك، ولذلك لا ينبغي أن يمتنع الناس عن طلبه، ووجوه الصعوبة كثيرة أهمها: أن القرآن كلام سماوي تنزل من حضرة الربوبية التي لا يكتنه كنهها: على قلب أكمل الأنبياء، وهو يشتمل على معارف عالية ومطالب سامية لا يشرف عليها إلا أصحاب النفوس الزاكية والعقول الصافية، وإن الطالب له يجد أمامه من الهيبة والجلال الفائضين من حضرة الكمال، ما يأخذ بتليبه ويكاد يحول دون مطلوبه، ولكن الله تعالى خفف علينا الأمر، بأن أمرنا بالفهم والتعقل لكلامه؛ لأنه إنما أنزل الكتاب نوراً وهدى، مبيناً للناس شرائعه وأحكامه، ولا يكون كذلك إلا إذا كانوا يفهمونه.

والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة، فإن هذا هو المقصد الأعلى

(١) تفسير جزء (عم): (ص ٨)، ط - المنار.

منه، وما وراء هذا من المباحث تابع له أو وسيلة لتحقيقه .

ويقول الأستاذ الإمام عند قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: «منح الله تعالى الإنسان أربع هدايات يتوصل بها إلى سعادته، أولاها: هداية الوجدان الطبيعي والإلهام الفطري وتكون للأطفال منذ ولادتهم، فإن الطفل بعد ما يولد يشعر بالمشكلة إلى الغذاء، فيصرخ طالباً له بفطرتة، وعندما يصل الثدي إلى فيه يلهم التقامه وامتصاصه. الثانية: هداية الحواس والمشاعر، وهي متممة للهداية الأولى في الحياة الحيوانية ويشارك الإنسان فيهما الحيوان الأعجم، بل هو فيهما أكمل من الإنسان، فإن حواس الحيوان والهامة يكملان له بعد ولادته بقليل، بخلاف الإنسان فإن ذلك يكمل فيه بالتدريج في زمن غير قصير».

ثم تحدث الإمام عن بقية أنواع الهداية بتفصيل وتوضيح^(١).

ثم تحدث عن الضالين وقسمهم إلى أقسام:

«القسم الأول: من لم تبلغهم الدعوة إلى الرسالة أو بلغتهم على وجه لا يسوق إلى النظر، فهؤلاء لم يتوفر لهم من أنواع الهداية سوى ما يحصل بالحس والعقل وحرّموا رشد الدين، فإن لم يضلوا في شؤونهم الدنيوية ضلوا لا محالة فيما تطلب به نجاة الأرواح، وسعادتها في الحياة الآخرة على أن من شأن الدين الصحيح أن يفيض على أهله من روح الحياة مابه يسعدون في الدنيا والآخرة معاً، فمن حُرّم الدين حُرّم السعادتين، وظهر أثر التخبط والاضطراب في أعماله المعاشية، وحل به من الرزايا ما يتبع الضلال والخبط عادة، سنة الله في هذا العالم ولن تجد لستته تبديلاً. أما أمرهم في الآخر فعلى أنهم لن يساوا المهتدين في منازلهم وقد يعفو الله عنهم وهو الفعال لما يريد.

القسم الثاني: من بلغت الدعوة على وجه يبعث على النظر، فساق همته إليه واستفرغ جهده فيه، ولكن لم يوفق إلى الإيمان بما دعي إليه. وانقضى عمره وهو في الطلب، وهذا القسم لا يكون إلا أفراداً متفرقة في الأمم، ولا يعم حاله شعباً من الشعوب، فلا يظهر له أثر في أحوالها العامة، وما يكون لها من سعادة وشقاء في حياتها الدنيا.

(١) تفسير المنار: (٣٦/١).

القسم الثالث: من بلغتهم الرسالة وصدقوا بها بدون نظر في أدلتها، ولا وقوف على أصولها، فاتبعوا أهواءهم في فهم ما جاءت به من أصول العقائد وهؤلاء المبتدعة في كل دين، ومنهم المبتدعون في دين الإسلام وهم المنحرفون في اعتقادهم عما تدل عليه جملة القرآن، وما كان عليه السلف الصالح وأهل الصدر الأول، ففرقوا الأمة إلى مشارب يغص بمائها الوارد، ولا يرتوي منها الشارب.

القسم الرابع: ضلال في الأعمال، وتحريف للأحكام عما وضعت له، كالخطأ في فهم معنى الصلاة والصيام وجميع العبادات، والخطأ في فهم الأحكام التي جاءت في المعاملات. ولنضرب لذلك مثلاً:

الاحتيال في الزكاة بتحويل المال إلى ملك الغير قبل حلول الحول ثم استرداده بعد مضي قليل من الحول الثاني، حتى لا تجب الزكاة فيه، ويظن المحتال أنه بحيلته قد خلص من أداء الفريضة، ونجاً من غضب من لا تخفى عليه خافية، ولا يعلم أنه بذلك قد هدم ركناً من أهم أركان دينه، وجاء بعمل من يعتقد أن الله قد فرض فرضاً وشرع بجانب ذلك الفرض ما يذهب به، ويمحو أثره، وهو محال عليه جل شأنه.

ثلاثة أقسام من هذا الضلال أولها وثالثها ورابعها يظهر أثرها في الأمم، فتختل قوى الإدراك فيها وتفسد الأخلاق، وتضطرب الأعمال، ويحل بها الشقاء عقوبة من الله لا بد من نزولها بهم، سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة تحويلاً.

وبعد حلول الضعف ونزول البلاء بأمة من الأمم من العلامات والدلائل على غضب الله تعالى عليها؛ لما أحدثته في عقائدها وأعمالها بما يخالف سنته، ولا يتبع فيه سنته؛ لهذا علمنا الله تعالى كيف ندعوه، بأن يهدينا طريق الذين ظهرت نعمته عليهم بالوقوف عند حدوده، وتقويم العقول والأعمال بفهم ما هدانا إليه، وأن يجنبنا طرق أولئك الذين ظهرت فيهم آثار نقمه بالانحراف عن شرائعه، سواء كان ذلك عمداً وعناداً أو غواية وجهلاً.

إذا ضلت الأمة سبيل الحق ولعب الباطل بأهوائها ففسدت أخلاقها واعتلت أعمالها، وقعت في الشقاء لا محالة وسلط الله عليها من يستذلها ويستأثر

بشؤونها، ولا يؤخر لها العذاب إلى يوم الحساب، وإن كانت ستلاقي نصيبها منه أيضاً.

فلإذا تمادى بها الغي وصل بها إلى الهلاك ومحى أثرها من الوجود؛ لهذا علّمنا الله تعالى كيف ننظر في أحوال من سبقنا، ومن بقيت آثارهم بين أيدينا من الأمم؛ لنعتبر ونميز بين ما به تسعد الأقوام وما به تشقى.

أما في الأفراد فلم تجر سنة الله بلزوم العقوبة لكل ضال في هذه الحياة الدنيا، فقد يستدرج الضال من حيث لا يعلم، ويدركه الموت قبل أن تزول النعمة عنه وإنما يلقي جزاءه: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَذِ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] ^(١).

ثم تكلم عن تفسير سورة البقرة فنظر فيها نظرة موضوعية هادفة فقال: «دعوة الإسلام العامة:

بدأ الله عز وجل سورة البقرة ، بدعوة القرآن وكونه حقاً لا مجال فيه لشك ولا ارتياب ، وجعل الناس تجاه هدايته ثلاثة أقسام:

(١) المؤمنون وهم قسمان: الذين يؤمنون بالغيب بمجرد سلامة الفطرة، و يقيمون ركني الدين: البدني والروحي والمالي الاجتماعي، والذين يؤمنون به بتأثير إيمانهم بما أنزل قبله من كتب الرسل، إذ يروونه أكمل منها هداية وأصح رواية وأقوى دلالة، ثم فصل هذه الأصول للإيمان في الآية (١٧٦)، وفي الآيتين (٢٨٤ ، ٢٨٥) منها.

(٢) الكافرون الراسخون في الكفر، وطاعة الهوى الذين فقدوا الاستعداد للإيمان والهدى.

(٣) المنافقون الذين يظهرون غير ما يخفون، ويقولون مالا يفعلون (فهذه آياتها الأولى إلى ٢٠ آية).

وقفى على هذه الدعوة الناس جميعاً إلى عبادة ربهم وحده وعدم اتخاذ الأنداد له: إلى أن قال: «ثم ثنى دعوة التوحيد بدعوة الوحي والرسالة، واحتج

(١) تفسير المنار: المجلد الأول (٦٩ - ٧٢)، بتصرف.

على حقية هذه الدعوة بهذا الكتاب المنزل على عبده محمد ﷺ بتحدى الناس كافة، بالإتيان بسورة من مثله مع التصريح القطعي بعجزهم أجمعين. ورتب على هذا إنذار الكافرين بالنار وتبشير المؤمنين بجنت تجري من تحتها الأنهار، وقضى على هذا بيان بعض الأدلة العقلية على الإيمان، وبخلاصة النشأة الأولى وعداوة الشيطان للإنسان، وتم ذلك بالآية (٣٩). إلى أن انتقل إلى الكلام عن خطاب أمة الإجابة بالفروع العملية التي نزلت بها سورة البقرة ففصلها تفصيلاً دقيقاً عن العبادات، وعن المعاملات إلى إحدى وعشرين نوعاً هي خلاصة موضوعات سورة البقرة، ثم انتقل بالحديث الموضوعي إلى الأصول والقواعد الشرعية العامة في سورة البقرة، فجعلها ثلاثاً وثلاثين قاعدة هي على التفصيل والبيان النظرة الوافية لآيات سورة البقرة.

القاعدة الأولى: إن اتباع هدى الله المنزل على رسله، وهو الدين موجب للسعادة بأن أصحابه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وهذا وعد يشمل الدنيا والآخرة لإطلاقه، ولكنه في الدنيا إضافي مطرد في الأمم، وإضافي مقيد غير مطرد في الأفراد، وفي الآخرة حقيقي مطرد للجميع، وموجب لشقاء من أعرض عنه بعد بلوغ دعوته على وجهها، على نسبة مقابلة في الدارين، والشاهد عليه قوله تعالى لآدم ومن معه: ﴿قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ الآية (٣٨) والتي بعدها (٣٩)، وراجع معناهما في سورة طه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]، وما بعدها إلى (١٢٨)، فهي موضحة لما أردنا هنا.

القاعدة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ الآية (٤٠)، وهي مقيدة لسعادة الدين، بأنها إنما تحصل بإقامته، فالله يقول: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في باب الإطلاق، ويقول في باب التقييد: ﴿إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصِرْكُمْ﴾، وهذا شاهد على التقييد الذي ذكرناه في القاعدة الأولى، ومثله: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ راجع الآيات (٨٤ - ٨٦).

القاعدة الثالثة: قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الآية (٤٤)، وهي صريحة في أن هذا مخالف للمقول الشرعي وهو الكتاب، وللمعقول الفطري، إذ لا يخفى على عاقل قبح عمل من يأمر

غيره بالخير وهو يتركه، أو ينهيه عن فعل ما يضره من الشر وهو يفعله، وأنه يقيم بذلك الحجة على نفسه، ولا يكون أهلاً لأن يمثل إلى أمره ونهيه.

القاعدة الرابعة: قوله تعالى في مقام الإنكار على بني إسرائيل: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١] صريح في وجوب ترجيح الأعلى على الأدنى وإثبات الخير على الشر، والإرشاد إلى طلب ما هو خير مما يقابله، وفي طلب المعالي والكمال في أمور الدنيا والآخرة، وفي معناه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ الآية (١٣٠).

القاعدة الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ الآية (٦٢)، صريحة في أن أصول دين الله تعالى على السنة جميع رسله هذه الثلاثة: الإيمان بالله، الإيمان باليوم الآخر وما فيه من الجزاء، والعمل الصالح، ومنه ما ذكر في آية (٨٣) من ميثاق بني إسرائيل، فثمره الإيمان منوطة بالثلاثة.

القاعدة السادسة: أن الجزاء على الإيمان والعمل معاً؛ لأن الدين: إيمان وعمل. ومن الغرور أن يظن الممتني إلى دين نبي من الأنبياء، أنه ينجو من الخلود في النار بمجرد الانتماء، الشاهد عليه ما حكاه الله لنا عن بني إسرائيل من غرورهم بدينهم، وما رد به عليهم حتى لا تنبع سنتهم فيه، وهو: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ آية (٨٠ - ٨٢)، وما حكاه عن اليهود والنصارى جميعاً من قولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾: إلخ الآيتين (١١١ و ١١٢)، ولكننا قد اتبعنا سنتهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع مصداقاً لما ورد في الحديث الصحيح، وإنما نمتاز عليهم بأن المتبعين لهم بعض الأمة لا كلها، وبحفظ نص كتابنا كله وضبط سنة نبينا في بيانه، وبأن حجة أهل العلم والهدى منا قائمة إلى يوم القيامة.

القاعدة السابعة: أن شرط الإيمان: الإذعان النفسي لكل ما جاء به الرسول الذي يلزمه العمل عند انتفاء المانع، ومأخذه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ الآية (٨٣) إلى آخر الآية (٨٦) وقوله: ﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا﴾ الآية (١٠٠)، فمن ترك بعض العمل بجهله فهو فاسق إلى أن يتوب، ومن تركه لعدم الإذعان له كان كافراً به، والكفر بالبعض كالكفر بالكل، والشاهد عليه

قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] الآية. وليس هذا من الكفر العملي الذي لا يخرج به صاحبه من الملة الذي استشهدوا له بحديث: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن). إلخ، كما قال بعض العلماء؛ لأن هذا النوع هو من عمل الأفراد الذين تغلب عليهم داعية طبيعية، كالشهوة والغضب، وما نحن فيه عبارة عن عدم العمل بالشرع الإلهي؛ لعدم الإذعان له، كاستباحة قتل فريق من الأمة، ونفي فريق آخر من وطنه بمحض اتباع الهوى، والطمع في عرض الدنيا، لا بجهالة عارضة يغلب فيها الفرد على أمره، ثم يثوب إليه رشده فيتوب إلى ربه.

القاعدة الثامنة: النسخ أو الإنشاء للآيات الإلهية التي يؤيد الله بها رسله، كما يقتضيه سياق قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾، أقرأها وما بعدها (١٠٦) أو (١٠٧)، أو للآيات التشريعية كما فهم الجمهور كلاهما من رحمة الله بجعل البديل خيراً من الأصل، أو مثله على الأقل، وتكون الخيرية في المثل التنويع وكثرة الآيات.

القاعدة التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ الآية (١٢٠)، آية للنبي كاشفة عن حال أهل الملتين في عصره، ولا تزال مطردة في أمته من بعده، وقد اغترر زعماء بعض الشعوب الإسلامية، فحاولوا إرضاء بعض الدول بما دون اتباع ملتهم من الكفر فلم يرضوا عنهم، ولو اتبعوا ملتهم لاشتروا أن يتبعوهم في فهمها وصور العمل بها، حتى لا يبقى لهم أدنى استقلال في دينهم ولا في أنفسهم.

القاعدة العاشرة: أن الولاية العامة الشرعية حقل أهل الإيمان والعدل، وأن الله تعالى لن يعهد بإمامة الناس وتولي أمورهم للظالمين، فكل حاكم ظالم فهو ناقض لعهد الله تعالى، راجع قول الله تعالى في إبراهيم عليه السلام بعد ابتلائه بما ظهر به استحقاقه للإمامة: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ الآية (١٢٣).

القاعدة الحادية عشرة: إن الإيمان الحق والاعتصام بدين الله تعالى المنزل، كما أنزله يقتضي الوحدة والاتفاق، وترك الاهتداء به يورث الخلاف والشقاق،

وشواهد من السورة قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ الآية (١٣٧)، وقوله: ﴿بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ الآية (١٧٦)، وقوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ الآية (٢١٣). إلخ.

القاعدة الثانية عشرة: الاستعانة على النهوض بمهمات الأمور بالصبر والصلاة
قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ الآية (٤٥).
وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ الآية (١٥٣)، وهذه قاعدة جلية راجع تفصيلها في تفسيرنا للآيتين وأمثالهما^(١).

القاعدة الثالثة عشرة: بطلان التقليد للأباء والأجداد والمشايخ والمعلمين
والرؤساء؛ لأنه جهل وعصبية جاهلية، والشواهد عليه في هذه السورة وغيرها
عديدة أظهرها هنا ما حكاه تعالى لنا عن تبرؤ المتبوعين من الاتباع يوم القيامة
في آيتي (١٦٦ و ١٦٧)، قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الآية (١٧٠)، وإن
في تحريم التقليد وتصريح الكتاب العزيز بأن الله تعالى لا يقبله ولا يعذر
صاحبه به في الآخرة؛ لتأكيدا شديداً لإيجاب العلم الاستقلالي الاستدلالي في
الدين، وهو لا يقتضي الاجتهاد المطلق في جميع مسائل التشريع، - أعني
الاستنباط العام بوضع الأحكام لكل ما يحتاج إليه الأفراد والحكام - وإن في
إطلاق مقلدة المصنفين من خلف القرون الوسطى القول بإيجاب تقليد المجتهدين
في أمور الدين، وتحريم الأخذ بالدليل فيه؛ لاشتراطهم فيه استعداد كل مستدل
مستقبل للتشريع لافتيا على دين الله، ونسخا لكتاب الله، وشرعا لم يأذن به
الله، خلاصته تحريم العلم وإيجاب الجهل، وهذا منتهى الإفساد للفتنة والعقل،
وهو أقطع المدى لأوصال الإسلام، وأفعل المعاول في هدم قواعد الإيمان، وعلة
العلل لانتشار البدع التي ذهبت بهداية الدين، واستبدلت بها الخرافات ودجل
الدجالين.

(١) «تفسير القرآن الحكيم» المنار: (١/ ١١٣)، وما بعدها.

القاعدة الرابعة عشرة: إباحة جميع طيبات المطعم الطبيعية بحسب أفرادها وإيجاب الأكل منها بحسب جنسها، وامتناع التحريم الديني العام لما لم يحرم الله تعالى منها، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الآية (١٦٨)، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ الآية (١٧٢)، وقوله بعدها: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ الآية (١٧٣)، فحصر المحرمات في هذه الأربعة. ومثله في سورة الأنعام والنحل من السور المكية، وفي سورة المائدة تفصيل في الميتة بجعل المنخقة والموقوذة والمتردة والنطيحة وأكلة السبع منها، إذا ماتت بذلك ولم تدرك تذكيتها، وقيدت آية الأنعام الدم بالمسفوح.

القاعدة الخامسة عشرة: إباحة المحرمات للمضطر إليها بشرط أن يكون غير باغ لها، ولا عاد فيها بتجاوز قدر الضرورة أو الحاجة منها، وذلك قوله تعالى في تنمة الآية الأخيرة من شواهد القاعدة التي قبل هذه: ﴿فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وليست القاعدة مقصورة على محرمات المطاعم، بل عامة لكل ما يتحقق الاضطرار إليه؛ لأجل الحياة واتقاء الهلاك، ولم يعارضه مثله أو ما هو أقوى منه، فالزنا ليس مما يضطر الناس إليه لذلك كما قال العلماء، ومن اضطر إلى رغيغ مضطر مثله فليس له أن يرجع نفسه على صاحب اليد وهو مالك الرغيغ.

القاعدة السادسة عشرة: بناء الدين عباداته وغيرها على أساس اليسر، ورفع الحرج والعسر، كما علل سبحانه به رخصة الفطر في رمضان بقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ومثله تعليل رخصة التيمم برفع الحرج كما في سورة المائدة. وهذه القاعدة أوسع مما قبلها؛ لأن هذه في ترك الواجب، إلى بدل عاجل أو آجل، وتلك في استباحة المحرم ولو مؤقتاً، فإن ترك الواجبات أهون من فعل المنهيات، لقوله ﷺ: (فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)، رواه الشيخان وهذا اللفظ لمسلم، وهو قطعة من حديث. وسبب هذا أن الترك أهون على غير المضطر من الفعل؛ لأن الأصل عدمه.

القاعدة السابعة عشرة: عدم تكليف مالا يطاق وهذه أصل للتين قبلها، والنص فيها قوله تعالى في آخر الآية (٢٨٦) من السورة: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ووسع الإنسان مالا حرج فيه عليه ولا عسر؛ لأنه ضد الضيق، ولذلك كانت هذه أوسع مما قبلها وأصلاً لهما، فالله لم يكلفنا في دينه وشرعه مالا طاقة لنا به، ولا يدخل في وسعنا أمثاله بغير عسر ولا حرج، فإذا عرض العسر عرضوا بأسبابه العادية، كالاضطراب لأكل الميتة والدم المسفوح، وكالمرض والسفر اللذين يشق فيهما الصوم واستعمال الماء في الغسل والوضوء أو يضر ترك الأول بنية القضاء، والثاني إلى التيسر المبيح للصلاة، ولا تترك الصلاة نفسها لعسر أحد شروطها وعدم عسرها في نفسها، وهي لا تعسر من حيث هي توجه إلى الله تعالى ومناجاة له بكتابته وذكره ودعائه، فإن شق على المصلي بعض أفعالها كالقيام استبدل به القعود، فإن شق عليه القعود صلى مضطجاً أو مستلقياً.

القاعدة الثامنة عشرة: حظر التعرض للهلكة، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ الآية (١٩٥)، فلا يجوز للمؤمنين ولا سيما جماعتهم أن يعتمدوا إلقاء أنفسهم إلى الهلاك بسعيهم واختيارهم، ويلزمه وجوب اجتناب أسباب التهلكة من فعلية وتركية - وتعبير المناطقة من سلبية وإيجابية - ويدل عليه ذكر هذا النهي عقد الأمر بالإنفاق في سبيل الله لما يحتاج إليه الدفاع من النفقات الكثيرة، ولا سيما في هذا العصر الذي تعددت فيه آلات القتال ووسائله، وعظمت نفقاتها فصارت الأمم العزيزة تنفق الملايين من الجنيهات على وسائل الحرب البرية والبحرية والجوية، وفروع هذه القاعدة كثيرة.

القاعدة التاسعة عشرة: إتيان البيوت من أبوابها لا من ظهورها، أي طلب الأشياء بأسبابها دون غيرها، فلا تجعل العادة عبادة، ولا العبادة عادة، ولا تطلب فنون الدنيا من نصوص الدين: (أنتم أعلم بأمر دنياكم)، كما قال خاتم النبیین، وأصل هذه القاعدة ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ الآية (١٨٩)، فللزراعة، والتجارة، والصناعة، وفنون الحرب وآلاته وأسلحته، أبواب لا يصل إليها من يدخل منها، ولعقائد الدين وعباداته وآدابه وحلاله وحرامه أبواب معروفة من

كتاب الله وسنة رسوله، ولأصول تشريعه السياسي أبواب من النصوص والاجتهاد معروفة أيضاً، فما اعتيد في هذه القرون الأخيرة من قراءة صحيح البخاري في المساجد؛ لأجل النصر على الأعداء مخالف لهذه القاعدة، وليس من المخالف لها الدعاء وتوجه المقاتلة إلى الله ؛ لنصرهم بعد إعداد ما استطاعوا من القوة لعدوهم، فإن الدعاء من أسباب القوة المعنوية.

القاعدة العشرون: حرية الدين والاعتقاد ومنع الاضطهاد الديني، ولو بالقتال حتى يكون الدين كله لله ومنع الإكراه على الدين، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انتهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الآية (١٩٣).

الفتنة اضطهاد الإنسان لأجل دينه بالتعذيب والقتل. والنفي كما فعل المشركون بالمسلمين في صدر الإسلام ، ولذلك قال في آيات القتال التي نزلت قبل هذه في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ. إلخ الآية (٣٩ - ٤٠).

ولذلك مهد لهذه الغاية هنا بقوله قبلها: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرِجُوهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ الآية (١٩١)، ثم قفى عليها بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ الآية (٢١٧).

وأما النهي عن الإكراه في الدين حتى الإسلام، فقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ الآية (٢٥٦)، وقد ذكرنا في تفسيرها ما رواه المحدثون ومصنفو التفسير المأثور من سبب نزولها.

وملخصه: أنه كان لدى بني النضير من يهود المدينة أولاد من أبناء الصحابة ربوهم وهودوهم، فلما أمر النبي ﷺ بإجلائهم؛ لتواتر إيذائهم، أراد المسلمون أن يأخذوا أبناءهم منهم ويكرهوهم على الإسلام، فنزلت الآية. فقال النبي ﷺ: (وقد خير الله أصحابكم، فإن اختاروهم فهم منهم، وإن اختاروكم فهم منكم).

ومع هذه النصوص لا يزال يوجد حتى في المسلمين من يصدق افتراء أعداء الإسلام، بأنه قام بالسيف والإكراه على الدين، وأن النبي ﷺ هو الذي كان يبدأ المشركين بالقتال.

القاعدة الحادية والعشرون: أن القتال شرع في الإسلام لمصلحتين أو ثلاث، الأولى: الدفاع عن المسلمين وأوطانهم، فإن المشركين أخرجوا النبي ومن كان آمن معه من أهل مكة، ثم بدأهم بالقتال وساعدهم عليهم أهل الكتاب وما زالوا يبدؤونهم ويقاتلونهم حتى عجزوا؛ وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ الآية (١٩٠)، الثانية: تأمين حرية الدين ومنع الاضطهاد فيه، وهو قوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انتهوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الآية (١٩٣)، هذا ما نزل في هذه السورة، الثالثة: ما في سورة التوبة من تأمين سلطان الإسلام وسيادته بدفع المخالفين له للجزية.

القاعدة الثانية والعشرون: إن من شأن المسلمين طلب ما هو أثر لازم للإسلام من سعادة الدنيا والآخرة معاً، كما تقدم في القاعدة الأولى، وإنما تتحقق الغايات ولوازم الأمور بطلبها والسعي لها.

فليس من هديه أن يترك المسلمون الدنيا ومعاشها وسياستها ويكونوا فقراء أذلاء، تابعين للمخالفين لهم من الأقوياء، ولا أن يكونوا كالأنعام لا هم لهم إلا في شهواتهم البدنية، وكالوحوش التي يفترس قويها ضعيفها، وهذا الجمع بين الأمرين مقتضى الفطرة، والإسلام دين الفطرة، وذلك هو ما أرشدنا الله إليه بقوله: ﴿فَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ إلخ الآية (٢٠١-٢٠٠).

القاعدة الثالثة والعشرون: أن الأحكام الاجتهادية التي لم تثبت بالنص القطعي الصريح رواية ودلالة لا تجعل تشريعاً عاماً إلزامياً، بل تفوض إلى اجتهاد الأفراد في العبادات الشخصية والتحريم الديني الخاص بهم، وإلى اجتهاد أولي الأمر من الحكام، وأهل الحل والعقد في الأمور السياسية والقضائية والإدارية ومأخذه آية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمْ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾

الآية (٢١٩)، ووجهه: أن هذه الآية تدل على تحريم الخمر والميسر بضرب من الاجتهاد في الاستدلال، وهو أن ما كان إثمه وضرره أكبر من نفعه فهو محرم يجب اجتنابه، وذلك ما فهمه بعض الصحابة فامتنعوا من الخمر والميسر، ولكن النبي ﷺ لم يلزم الأمة بهذا، بل أقر من تركهما ومن لم يتركهما على اجتهدهما إلى أن نزل النص القطعي الصريح في تحريمهما، والأمر باجتنابهما في سورة المائدة فحيث بطل الاجتهاد فيهما، وأهرق كل واحد من الصحابة ما كان عنده من الخمر، وصار النبي ﷺ يعاقب من شربها.

وبناء على هذه القاعدة كان يعذر كل أحد من سلف الأمة من خالفه، أو خالف بعض الأخبار والآثار الاجتهادية غير القطعية رواية ودلالة، ولم يوجبوا على أحد أن يتبع أحد في اجتهاده، كما يفعل الخلف المقلدون.

وبناء على هذه القاعدة لم يقبل الإمام مالك رحمه الله تعالى من المنصور أولاً، ولا من هارون الرشيد ثانياً، أن يحمل المسلمين على العمل بكتبه ولا بالموطأ الذي هو أصح ما رواه من الأخبار المرفوعة وآثار الصحابة، وواطأه عليه جمهور من علماء عصره.

القاعدة الرابعة والعشرون إلى السابعة والعشرين: بناء أمور الزوجية والبيوت وتربية الأولاد على أربع دعائم:

(١) قيام النساء بالأمور التي تقتضيها وظيفتهن، كالرضاعة وغيرها من أمور تربية الأطفال، ويقوم الزوج بالنفقة كلها.

(٢) أن لا يكلف كل منهما ما ليس في وسعه مما يدخل في حدود وظيفته والواجب عليه.

(٣) لا يضار أحد منهما بالولد، ولا بغيره بالأولى، والمضارة دون تكليف ما ليس في الوسع.

(٤) إبرام الأمور غير القطعية بالتراضي والتشاور.

وهذه القواعد ظاهرة صريحة في آية: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْصَبَ الرِّضَاعَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا

وَتَشَاوِرْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴿ الآية (٢٣٣)، ولو عمل المسلمون بهذه القواعد وأمثالها من أحكام الكتاب والسنة؛ لكانوا أسعد الأمم في بيوتهم، ولما وجد من أعدائهم ولا من زنادقتهم من يهذي بإسناد ظلم النساء إلى الإسلام، أو حاجة المسلمين إلى تقليد غيرهم في شيء من إصلاح البيوت (العائلات).

القاعدة الثامنة والعشرون: جعل سد ذرائع الفساد والشر، وتقرير المصالح، وإقامة الحق والعدل في تنازع الناس بعضهم مع بعض، مناطا للتشريع وأصلا من أصول الأحكام الاجتهادية، وذلك أن الله تعالى علل به شرعه للقتال، ومنتته على نبيه داود وجنده بالنصر على عدوهم؛ وما ترتب عليه من إيتائه الحكم والنبوة إذ قال: ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ الآية (٢٥١)، وفي معناه تعليل الإذن للمسلمين في القتال أول مرة بآيات سورة الحج التي استشهدنا بها في القاعدة العشرين: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهْدِمَتْ صُرُومُ وَبِيعَ صَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠].

وما هنا أعم؛ لأنه يشمل درء هذه المفسدة في الدين وغيرها من الفساد الديني والدنيوي، وهو المتأخر في النزول.

القاعدة التاسعة والعشرون: أن الإيمان بقاء الله تعالى في الآخرة والاعتصام بالصبر الذي هو من أركان البر وكماله، من ثمرات الإيمان، سببان من أسباب نصر العدد القليل على العدد الكثير، وذلك قوله عز وجل: ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَيْسِرَ إِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ الآية (٢٥٠).

القاعدة الثلاثون: تحريم أكل أموال الناس بالباطل في الآية (١٨٨)، وهي أصل لكل المحرمات ومن أدلتها تعليل تحريم الربا بعد الأمر بترك ما كان باقيا لأصحابه منه لدى المدينين، بقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَبْتِمُ فَلَكُمْ رِءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، فإن الذي كان يقرض المحتاج بالربا إلى أجل إذا حل قال له: إما أن تقضي وإما أن تربي، فإن لم يجد ما يقضي به، أنسأ له في الدين إلى أجل آخر بمثل الربا الأول، فإذا حل الأجل الثاني قال له: إما أن

تقضي وإما أن تربى - وهلم جرا - فكل ما يأخذه من هذه الزيادات باطل لا مقابل له وهو ظلم، وأما العقود والمعاملات التي لا ظلم فيها باكل مال أحد المتعاقدين بالباطل فليست من الربا.

القاعدة الحادية والثلاثون: أن عمل كل إنسان له أو عليه لا يجزى إلا به ولا يجزى به سواه، فلا ينفعه عمل غيره ولا يضره، وذلك قوله تعالى في خاتمة هذه السورة: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ويعززها قوله تعالى في الآية التي ورد أنها آخر آية نزلت من القرآن، وأمر النبي ﷺ بوضعها بعد آيات الربا من السورة وهي: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وإن لم ترد بصيغة الحصر، وفيه آيات كثيرة. فقد سبق بيان هذه القاعدة من قواعد العقائد في بعض السور المكية التي نزلت قبلها، كقوله تعالى في سورة النجم الآية (٣٨ - ٣٩): ﴿أَلَّا تَرَوْا زُرَّةً وَزُرَّ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾. الخ، وكقوله في سورة الأنعام الآية (١٦٥): ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ من الشواهد، وما جعلوه معارضاً لها مخصصاً لعمومها من انتفاع الميت والحي بعمل غيره، وما يصح منه وما لا يصح، وكون الصحيح منه لا ينافي عموم القاعدة.

القاعدة الثانية والثلاثون: بيان بطلان الشفاعة الوثنية التي كانت أساس شرك العرب ومن قبلهم، وهي التقرب إلى غير الله تعالى بالدعاء وغيره؛ ليشفعوا لهم عند الله فيكشف ما بهم من ضر، ويؤتيهم ما طلبوا من نفع، وزاد عليهم مشركو أهل الكتاب والمؤمنين بالبعث الاعتماد على الشفعاء بالنجاة من عذاب الآخرة قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقد نفى الله تعالى هذه الشفاعة بقوله من هذه السورة خطاباً لهذه الأمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شُفَاعَةٌ﴾ الآية (٢٥٣)، وقوله في خطاب بني إسرائيل: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شُفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]، وفي معناها آية (١٢٢). وأما الشفاعة الثابتة في الأحاديث فهي غير هذه، ولا تنافي التوحيد، وكون الشفاعة لله جميعاً، وسيأتي بيانها.

القاعدة الثالثة والثلاثون بناء أصول الدين في العقائد وحكمة التشريع على إدراك العقل لها، واستبانته لما فيها من الحق والعدل ومصالح العباد، وسد ذرائع الفساد، والشاهد عليه من هذه السورة قوله تعالى في الاستدلال على توحيده بآياته في السماوات والأرض وما بينهما: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله - ﴿لَا يَاتُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الآية (١٦٤)، ثم قوله في إبطال التقليد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الآية (١٧٠)، وكذلك قال تعالى بعد ذكر طائفة من الأحكام العملية: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الآية (٢٤٣)»^(١).

وفي بداية تفسيره لسورة آل عمران فعل الشيء نفسه الذي بدأ به سورة البقرة، فقال: «الاتصال بين هذه السورة وما قبلها من وجوه، فمنها: أن كلا منهما بدأ بذكر الكتاب وشأن الناس في الاهتداء به، ففي السورة الأولى ذكر أصناف الناس من يؤمن به ومن لا يؤمن، والمناسب في ذلك التقديم؛ لأنه كلام في أصل الدعوة، وفي الثانية: ذكر الزائغين الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، والراسخين في العلم الذين يؤمنون بحكمه ومتشابهه، ويقولون: كل من عند ربنا والمناسب فيه التأخير، لأنه فيما وقع بعد انتشار الدعوة ومنها أن كلا منهما قد حاج أهل الكتاب.

ولكن الأولى أفاضت في محاجة اليهود واختصرت في محاجة النصارى، والثانية بالعكس والنصارى متأخرون عن اليهود في الوجود، وفي الخطاب بالدعوة إلى الإسلام فناسب أن تكون الإفاضة في محاجتهم في السورة الثانية.

ومنها ما في الأولى من التذكير بخلق آدم، وفي الثانية من التذكير بخلق عيسى، وتشبيه الثاني بالأول في كونه جاء بديعاً على غير سنة سابقة في الخلق، وذلك يقتضي أن يذكر كل منهما في السورة التي ذكر فيها، ومنها أن في كل منهما أحكاماً مشتركة كاحكام القتال، ومن قابل بين هذه الأحكام رأى أن ما في الأولى أحق بالتقديم، وما في الثانية أجدر بالتأخير ومنها الدعاء في آخر كل منهما، فالدعاء في الأولى يناسب بدء الدين؛ لأن معظمه فيما يتعلق

(١) تفسير المنار: (١/ ١١١ - ١٢١)، ط - دار المعرفة.

بالتكليف وطلب النصر على جاحدي الدعوة ومحاربي أهلها، وفي الثانية يناسب ما بعد ذلك؛ لأنه يتضمن الكلام في قبول الدعوة وطلب الجزاء عليها في الآخرة.

ومنها ما قاله بعضهم من ختم الثانية بما يناسب بدء الأولى، كأنها متممة لها، ذلك أنه بدأ الأولى بإثبات الفلاح للمتقين، وختم الثانية بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩] ^(١).

هذه لمحة خاطفة عن منهج الأستاذ الإمام في تفسيره الذي جمعه رشيد رضا في «تفسير المنار»، وكان يبرز كلام الأستاذ الإمام ويميز بينه وبين تعليقه عليه، وكان يعرض ما كتبه عليه قبل أن يمثل للطبع، فكان يلقي قبولاً منه واستحساناً، وقد أحدث هذا المنهج في التفسير الموضوعي حدثه، وترك أثره، وذاع خبره لدى كل تلاميذ الأستاذ الإمام، ومن جاء بعده ممن اقتفى أثره وسار على نهجه ومنهجه.

أبرز تلاميذ الأستاذ الإمام:

كان رشيد رضا أبرز تلاميذ الأستاذ الإمام في تفسيره ومنهجه، وهو الذي أكمل «تفسير المنار» بعد وفاة الأستاذ الإمام ولم يكن هناك خلاف كبير بين المنهجين إلا في القليل النادر، أو العناية بالحديث النبوي سنداً ومتناً.

على هذا المنهج سار الشيخ عبد القادر المغربي في تفسيره لجزء تبارك فقال (في مقدمة تفسيره لجزء تبارك)، وهو الجزء التاسع والعشرون من الكتاب الكريم: «وقد وضع مولانا الأستاذ الشيخ محمد عبده رحمه الله تفسيراً لجزء (عم) توخى فيه هذا النمط والأسلوب. فجاء من خير الكتب وفاء بالغرض وإصابة لمواضع الحاجة. فلا غرور إذا تناولته الألسنة بالثناء وتلقته القلوب بالقبول.

وقد رغب إلى بعض الفضلاء في أثناء إقامتي بمصر، أن أضع تفسيراً لجزء (تبارك) أتوخى فيه طريقة أستاذنا الجليل، فيما علقه على جزء (عم) من جهتي

(١) تفسير المنار: (١٥٣/٣) ط - دار المعرفة.

الصحة في التعبير والاختصار على المفيد من القول»^(١). إلخ كلامه.

وعلى نفس المنهج إتجه الشيخ محمد مصطفى المراغي في دروسه في الأزهر، فقد عني بالموضوعية في التفسير، كما أظهر دليل العناية بالمنهج الموضوعي الذي يهدف إلى توضيح الآيات وتفسيرها بما يوصل إلى الغرض المنشود منها في الهداية والتوجيه، وكانت قد ظهرت بعض آثاره في مجلة الأزهر في موضوعات متفرقة.

ثم جاء الشيخ جمال الدين القاسمي وألف كتابه الكبير «محاسن التأويل» حيث جاء في مقدمة تفسيره بمقدمة تفسير المنار كلها ذكراً أهميتها، وكونها من وضع الأستاذ الإمام. وعندما يتعرض لتفسير آية من الآيات بعد أن يذكر ما قد قيل فيها من آراء. تراه يستشهد بكلام الأستاذ الإمام وكثيراً ما ينهي كلامه بتلخيص عام للآيات على طريقة الأستاذ الموضوعية في تفسير القرآن.

يقول القاسمي في تفسير (بسم الله الرحمن الرحيم): «وقد ناقش في كون الرحمن الرحيم بمعنى واحد العلامة الشيخ محمد عبده المصري في بعض مباحثه التفسيرية قائلاً:

إن ذلك غفلة نسال الله أن يسامح صاحبها ، ثم قال: وأنا لا أجيز لمسلم أن يقول في نفسه أو بلسانه: إن في القرآن كلمة جاءت لتأكيد غيرها، ولا معنى لها في نفسها، بل ليس في القرآن كلمة جاءت لتأكيد غيرها، ولا معنى في نفسها، بل ليس في القرآن حرف جاء لغير معنى مقصود.

والجمهور على أن معنى الرحمن: المنعم بجلال المنعم، ومعنى الرحيم: المنعم بدقائقها، وبعضهم يقول: إن الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل للكافرين مع غيرهم ، والرحيم المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين.

وكل هذا تحكم باللغة مبني على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

ولكن الزيادة تدل على الوصف مطلقاً، فصيغة الرحمن تدل على كثرة الإحسان الذي يعطيه سواء كان جليلاً أو دقيقاً. وأما كون أفراد الإحسان التي يدل عليها اللفظ الأكثر حروفاً، أعظم من أفراد الإحسان التي يدل عليها اللفظ

(١) مقدمة تفسير جزء (تبارك): الشيخ عبد القادر المغربي، ط - الأميرية بالقاهرة.

الأقل حروفاً، فهو غير معنى ولا مراد».

إلى أن قال: «والذي أقول: إن لفظ (رحمن) وصف فعلي فيه معنى المبالغة، كفعال، ويدل استعمال اللغة على الصفات العارضة، كعطشان وغضبان.

وأما لفظ (رحيم)، فإنه يدل في الاستعمال على المعاني الثابتة، كالأخلاق والسجايا في الناس، كعليم وحليم وحكيم.

والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربي البليغ في الحكاية عن صفات الله عز وجل، التي تعلق عن مماثلة صفات المخلوقين، فلفظ الرحمن يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة والإحسان، وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة. وبهذا المعنى لا يستغنى بأحد الوصفين عن آخر ولا يكون الثاني مؤكداً للأول^(١). إلخ كلامه.

هذه النظرة الموضوعية لدى تلاميذ الأستاذ الإمام، أبرزت الفكرة الموضوعية في التفسير إبرازاً واضحاً لدى المشتغلين بالدراسات القرآنية عامة. كان من هؤلاء الشيخ عبد الحميد باديس الجزائري، الذي نهل من هذا المنهل حين قام بتدريس تفسير القرآن في خمس وعشرين سنة على نفس الطريقة والمنهج، الذي سار عليه الأستاذ الإمام في دروسه في الأزهر.

ذكر ذلك الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في مقدمة تفسير ابن باديس المسمى «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير»، فبرزت الدراسة الموضوعية وأخذت لوناً ظاهراً لدى أهل التفسير. جاء ذلك في تونس على يد عالم من أبرز علمائها الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير» قدم لهذا التفسير الكبير بمقدمة في عشرة فصول تناول فيها أهم مسائل علوم القرآن من إبداع في الرأي، وتجديد في الفكر، وتحرير للعبارة تظهر دون لبس، وكيف أن الشيخ اقتفى أثر السابقين في الدراسة الموضوعية (حذو القذة بالقذة) حيث يستشهد بكلام الأستاذ الإمام ويسير على نهجه في توضيح الآيات.

فقال في مقدمة تفسيره لسورة البقرة: «هذه السورة مترامية أطرافها وأساليبها ذات أفنان، قد جمعت من وشائج أغراض السور ما كان مصداقاً لتلقيها

(١) تفسير القاسمي: (٥/٢ - ٦)، ط - الحلبي.

فسطاط القرآن، فلا تستطيع إحصاء محتوياتها بحسبان، وعلى الناظر أن يرتقب تفاصيل منها فيما يأتي لنا من تفسيرها، ولكن هذا لا يحجم بنا عن التعرض إلى لائحات منها، وقد حيكّت بنسج المناسبات والاعتبارات البلاغية من لحمة محكمة في نظم الكلام، وسدى متين من فصاحة الكلمات، ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين: قسم يثبت سمو هذا الدين على ما سبقه وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس. وقسم يبين شرائع هذا الدين؛ لأتباعه وإصلاح مجتمعهم.

وكان أسلوبها أحسن ما يأتي عليه أسلوب جامع لمحاسن الأساليب الخطائية، وأساليب الكتب الشريعية وأساليب التذكير والموعظة، يتجدد بمثله نشاط السامعين بتفنن الأفانين، ويحضر لنا من أغراضها أنها ابتدأت بالرموز إلى تحدي العرب المعاندين تحدياً إجمالياً بحروف النهجي المفتوح بها رمزا يقتضي إستشرافهم لما يرد بعده، وانتظارهم لبيان مقصده، فأعقب بالتنويه بشأن القرآن، فتحول الرمز إيماء إلى بعض المقصود من ذلك الرمز له أشد وقع على نفوسهم، فبقي في انتظار ما يعقبه من صريح التعجيز الذي سيأتي بعد قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] الآيات. ^(١) إلخ كلام ابن عاشور.

وكان الشيخ محمود شلتوت في منهجه وتفسيره تطبيقاً عملياً للتفسير الموضوعي نصاً وروحاً، ظهر ذلك في مؤلفاته وإتجاهاته.

فهو عند تفسيره لسورة الفاتحة يقول: «وقد أجملت الفاتحة كل ما فصل في القرآن الكريم من إثبات التوحيد، والبعث، وبيان الطريق المستقيم الذي يسلكه الإنسان في تنظيم حياته مع ربه ومع نفسه ومع الناس، فالجملتان (الحمد لله رب العالمين) و(الرحمن الرحيم) تثبتان توحيد الله في الخلق والتربية عن طريق الرحمة الواصل أثرها إلى عباده.

والجملة الثالثة (مالك يوم الدين) تثبت النشأة الآخرة التي يقع فيها الجزاء على الأعمال، والجملتان (إياك نعبد وإياك نستعين) تقرران مبدأ عبادة الله وحده، ومبدأ عجز الإنسان واحتياجاته إلى معونة ربه، وتقطعان عليه سبيل التوجه لغير الله بالعبادات والاستغاثة.

(١) التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور (٣٩/١٠ - ٤١).

وجملة (اهدنا الصراط المستقيم) توجه الإنسان إلى طلب الأحكام التي ينظم بها شأنه من الله سبحانه وتعالى، فهو المعلم، وهو المشرع، وهو الموفق للعمل بما يعلم وبما يشرع.

وجملة (صراط الذين أنعمت عليهم) ترشد إلى أن الناس أمام شرع الله وطريقه فرق ثلاث، فريق عرفوا بالتزام الصراط المستقيم حتى أضيف إليهم وعرف بهم، وكانوا فيه قدوة لغيرهم، وهو المنعم عليهم، وفريق جحدوا صراط الله وأحكامه عناداً واستكباراً وهم المغضوب عليهم، وفريق متردد بين الظهور بالإيمان وبين استبطان الكفر وهم (الضالون).

وبذلك استوفت سورة الفاتحة العقيدة في المبدأ والمعاد بها كمال الإنسان من الجانب العلمي، واستوفت طريق العمل الصالح وبه كمال الإنسان من الجانب العملي، وأشارت إلى تاريخ البشرية الفاضلة في التزام الحق علماً وعملاً؛ وإلى تاريخ البشرية الفاسقة في التنكب عن العلم والعمل. وهذا إجمال لكل ما فصل في القرآن الكريم، ومن هنا كانت الفاتحة مقدمة الكتاب أم الكتاب^(١).

وعندما يتجه إلى تفسير سورة البقرة نراه يجسد الموضوعية في مستهل تفسيره فيقول: «مقاصد السورة: وسورة البقرة من أجمع سور القرآن فقد احتوت على أصول العقيدة وعلى كثير من أدلة التوحيد، كما ذكرت مبدأ خلق الإنسان، ثم وجهت عنايتها إلى أمرين اقتضت الإفاضة فيهما حالة المسلمين التي صاروا إليها بالهجرة من مكة إلى المدينة.

أحدهما: أن المسلمين تركزوا جماعة مستقلة لأول دخولهم المدينة، فبنى النبي مسجده ؛ ليؤدي فيه مع المؤمنين الصلوات المفروضة، وليكون بمثابة ندوة جامعة لهم، فيها يتعلمون، وفيها يتشاورون، وفيها يتحاكمون، وأخى النبي ﷺ في الوقت نفسه بين المهاجرين والأنصار، وصاروا جبهة واحدة تؤمن بالله وتدعو إلى الخير والفضيلة، وتحتاج إلى تشريع تنظم به شؤونها.

ثانيهما: أنه قد صار لهم جوار في المدينة غير جوارهم في مكة: جاؤوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى بعد جوارهم للمشركين في مكة.

(١) من هدى القرآن: محمود شلتوت (ص ٦ - ١١)، ط - دار الكتاب العربي.

وبهذين الأمرين نجد السورة تهدف في جملتها إلى غرضين هما:

توجيه الدعوة إلى بني إسرائيل، ومناقشتهم فيما كانوا يثيرون حول الرسالة المحمدية من تشكيكات وشبه، وفي سبيل ذلك أخذت تذكركم بنعم الله على أسلافهم، وبما انتاب هؤلاء الأسلاف حينما التوت عقولهم عن تلقي دعوة الحق من أنبيائهم السابقين، وارتكبوا ما ارتكبوا من صنوف العناد والتكذيب والمخالفة. وقرأ في ذلك من قوله تعالى في السورة: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون﴾ إلى آخر آية البر في منتصف السورة تقريباً: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾.

وهذا هو الغرض الأول الذي استدعاه جوار المسلمين لأهل الكتاب، أما الغرض الثاني، فهو التشريع الذي بمقتضاه يكون المسلمين جماعة متميزة عن غيرها في عباداتها ومعاملاتها وعاداتها.

وعندما يبدأ في تفسير سورة النساء، ويقدم لها كما يقدم لكل سورة ما يحدد موضوعها، يعقب ذلك بحديث يتعلق بنظام اجتماعي يعالجه الشيخ بأسلوب فيه عمق وتشويق، فيقول تحت عنوان: سورة النساء تعالج الاستقرار الداخلي والاستقرار الخارجي: «يجدر بنا بعد هذا أن نكمل ما عرضت له سورة النساء من أحكام وارشاد في نواحي الجماعة فنقول:

إن احتفاظ الأمم بكيانها يرتبط بأمرين عظيمين: الاستقرار الداخلي والاستقرار الخارجي .

فالاستقرار الداخلي: أساسه صلاح الأسرة وصلاح المال في ظل تشريع قوي عادل، مبني على مراعاة مقتضيات الطبيعة الإنسانية، مجرداً من تحكيم الأهواء والشهوات؛ وذلك إنما يكون إذا كان صادراً عن حكيم خبير بنزعات النفوس واتجاهاتها، تمتلئ النفس بعظمته وقوته، وغيرته على تشريعه ومحارمه.

والاستقرار الخارجي: أساسه احتفاظ الأمة بشخصيتها والاستعداد لمقاومة الشر الذي يطرا عليها، والعدو الذي يطمع فيها.

وسورة النساء تكفلت بوضع أسس الأحكام التي تصلح بها هذه النواحي، ونستطيع أن نرد ما عرضت له الصورة إلى الموضوعات الآتية:

الأسرة، المال، أسس الجماعة الإسلامية، مصادر التشريع، ألوان التمرد على التشريع أسس الاستقرار الخارجي، مكافحة الآراء والشبه الضارة، تتويج هذا كله بالدعوة إلى الإيمان بمحمد ﷺ وما جاء به من هداية ونور.^(١)

وهكذا فعل الشيخ شلتوت في تفسيره للسور التي قام بتفسيرها وأبرز فيها موضوعية التفسير بشكل جيد.

وهكذا فعل الدكتور محمد عبد الله دراز الذي نهج التفسير الموضوعي بكل وضوح فيما كتب، وفيما حاضر وفيما ألف، فقال في هذا المجال: «إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله وأوله بآخره، ويتراعى بجملته إلى غرض واحد كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة، وأنه لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية»^(٢).

ثم يتناول بالحديث والتعليق كل جانب من هذه الجوانب، ونراه يمس الناحية الاجتماعية مسا بديعاً وتفسيراً جديداً لهذه المعاني كل على حدة.

انظر إليه وهو يتحدث تحت هذا العنوان: «أشارت السورة إلى فكرة الضمان الاجتماعي، ولا يفوت السورة - بعد أن وضعت ما وضعت في جانب المال - أن تنبه إلى أن المحافظة على الأموال ليس معناها قبض اليد عن البر والإنفاق في سبيل الله، وسد حاجة المعوزين والإحسان إليهم، فتأمر بأساس الفضائل التي تهذب النفس، وهو عبادة الله والخلاص له في العبادة، كما تأمر بالإحسان في معاملة الناس، وتخص بالذكر طوائف هي أجدر بالإحسان، والإحسان إليها إحسان إلى النفس وإلى الأسرة وإلى الإنسانية كلها، واقرأ في ذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا﴾ (٣٦) الَّذِينَ يَخْلَوْنَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ

(١) تفسير الشيخ شلتوت: دار القلم - القاهرة (بتصرف).

(٢) النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز (ص ١٥٤).

الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩) ﴿ [النساء: ٣٦ - ٣٩] .

وهذه آيات يجدر بالمؤمنين أن يتفهموها، وأن يعرفوا مغزاها، وسيرون أنها تضع لهم أساس ما تعارفه الناس اليوم، ولهجت به ألسنتهم طلباً للتضامن وسيلاً للعزة القومية، وهو (الضمان الاجتماعي) .

فهي تضع أولاً عبادة الله وحده أساساً لهذا الضمان، وتجعل عدم الإشراف بالله عنواناً صادقاً لإفراد الله بالعبادة، وعدم الإشراف به شيئاً، وذلك يحفز النفوس إلى الخوف من الله والرجوع إليه في كل شيء فلا يتجه أحد إلا إليه، ولا يخشى إلا إياه، ولا يتلقى حكماً أو تشريعاً إلا منه .

وعندما يتحدث عن الأسرة يتناول جانباً أساسياً فيها، وقاعدة مرعية لها خطرهما هي: العناية بالوالدين باعتبارهما عماد الأسرة ، والأسرة أساس المجتمع فيقول: «ثم تذكر (الوالدين) وقد جاءت الوصية بالإحسان إلى الوالدين في أربع سور من القرآن الكريم: جاءت في سورة البقرة تذكيراً بالميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣] ، وجاءت في سورتنا هذه وفي الآية التي هي موضع الحديث: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦] ، وجاءت في سورة الأنعام ضمن الوصايا العشر التي وردت في كل دين: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١] ، وجاءت في سورة الإسراء ضمن ما قضى به الله وشرعه من الوصايا العامة: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّيَ أَلَّا تُعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَلْعَنَ عَنكَ الْكَبِيرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤] .

وما يجدر بنا التنبيه له أن الإحسان في هذه الآيات عدى بالباء، وتعديته بالباء - وهي تدل على معنى الإلصاق - يفيد أن المطلوب أن يتصل البر والإحسان بمن طلب له البر والإحسان دون انفصال ولا مسافة بينهما، وهذا فيه

من الدلالة على تأكيد طلب الإحسان بالوالدين والعناية به ما ليس في التعدية بكلمة (إلى)، وليضم إلى هذا أن الأمر به جعل تالياً للأمر بعبادة الله وحده أو النهي عن الإشراك به، وفي هذا رفع أيما رفع لمقام الأبوة والأمومة.

وقد جاءت الوصية بهما في سورة العنكبوت: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)﴾ [العنكبوت: ٨]، وفي سورة لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّالَهُ فِي سَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)﴾ [لقمان: ١٤، ١٥]، وفي سورة الأحقاف: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصَّالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ (١٦) وَالَّذِي قَالَ لُؤْلُقُ لَوَالِدَيْهِ أَفْ لَكُمْمَا اتَّعَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨)﴾ [الأحقاف: ١٥ - ١٨].

وبالرجوع إلى آيات تلك السور نجد أنها تشير إلى السبب في العناية بالوالدين وتنص على مدى طاعتها، وتتفرد سورة الأحقاف بتصوير صفتين واضحتين تمثل إحداهما خلق الولد البار الذي أدرك فضل الله عليه بالوالدين، وتمثل الأخرى خلق الولد العاق الذي لم يسمع نصيح والديه، بل تأفف منهما وتضجر، هذه عناية القرآن الكريم بشأن الوالدين، ولعلنا ندرك أن العناية بالوالدين إلى هذا الحد لم تكن نظراً لشخصهما فقط، وما قاما به من تربية الولد، وإنما كانت لأنهما عماد الأسرة، ولا بد من تكوين الأمة تكويناً قوياً صحيحاً، يستظل فيه أفرادها بلواء العزة والسعادة، ويمتد منها إلى الأقارب والجيران وسائر حلقات الأمة؛ وبذلك تمتد الفضيلة إلى الأمة كلها، وما الأمة

إلا مجموعة الأسر، يعينها ما يصيب الأسر، إن شرا فشر، وإن خيراً فخير.

ومما يحقق هذا أنه جاء في آيتنا بعد طلب الإحسان إلى الوالدين طلب الإحسان إلى ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل طلب من الإنسان الإحسان إلى ما يملكه ويتصرف فيه ويتنفع به، وبذلك طلبت الآية الرحمة والإحسان طلباً عاماً شاملاً، حتى تظهر عاطفة الرحمة والإشفاق بين طوائف الناس، بل طوائف الخلق جميعاً.

ولا ريب أن ذلك من أقوى الوسائل التي تكفل العزة والسيادة في الأمة.

ثم تشير الآيات بعد ذلك إلى أن التقصير في هذا الحق الاجتماعي شأن المختالين الفخورين، وهم المتكبرون الذين يظهر أثر كبرهم في عملهم، أو فيه، وفي أقوالهم، ومثل هؤلاء لا يعترفون - لما في قلوبهم من كبر عملي أو قول بحق الغير - على أنفسهم فهم لا يرون في الحياة إلا أنفسهم، ومتعة أنفسهم، ولا يرون حقاً عليهم لغيرهم خالقاً كان أو مخلوقاً، وقد جعلهم الله صنفين من طبيعة كل منهما ألا يعترف الله بشكر على نعم، ولا لخلق بحق عليه: ﴿الَّذِينَ يَخُلُون﴾ [النساء: ٢٧، ٢٨] الآية، أو: ﴿وَالَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ [النساء: ٣٨] فالبخل يمنع الحق، والمرائي ينفق لحق نفسه في جلب مظاهر الفخر الكاذب، وحسب هذين تسجيل القرآن الكريم عليهم أن قرينهم الذي أغراهم بهذا الموقف من الله، ومن خلق الله هو الشيطان منبع الشر والمغري بالفساد: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قُرِينًا فَسَاءَ قُرِينًا﴾ [النساء: ٣٨] ^(١).

وهذا هو الدكتور محمد عبد الله دراز الذي كتب كتابه «النبا العظيم»، وكأنه في جملته وتفصيله يتحدث عن الموضوعية بكل وضوح فيقول: «واعلم أنه ليس من همنا الآن أن نكشف لك عن جملة الوشائج اللفظية والمعنوية، التي تربط أجزاء هذه السورة الكريمة بعضها ببعض، فتلك دراسة تفصيلية لها محلها من كتب التفسير، ذلك ولو نشاء لأريناك في القطعة الواحدة منها أسباباً ممدودة عن أيمانها وعن شمائنها، تمت بها إلى الجار ذي القربى والجار الجنب، في شبكة

(١) الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير: د. عبد الغفار عبد الرحيم (ص ٣٦٤ - ٣٦٨)، ط - دار الأنصار بالقاهرة (بتصرف).

من العلائق يحار الناظر إلى خيوطها، مع أيها يتجه؟ ولا يدري أيها هو الذي قصد بالقصد الأول.

وإنما نريد أن نعرض عليك السورة عرضاً واحداً نرسم به خط سيرها إلى غايتها، ونبرز به وحدة نظامها المعنوي في جملتها، لكي ترى في ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة موقعها من تلك السلسلة العظمى.

يبد أننا قبل أن نأخذ فيما قصدنا إليه نحب أن نقول (كلمة) ساق الحديث إليها: وهي أن السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني تقضي بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه، فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضوعية بين جزء جزء منه - وهي تلك الصلات المبثوثة في مشاني الآيات ومطالعها ومقاطعها - إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها، وضبط مقاصدها، على وجه يكون معاوناً له على السير في تلك التفاصيل عن بينة؛ فقدima قال الأئمة: «إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويتراعى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة، وإنه لا غنى لتفهم نظم السور عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية». كما أسلفت من حديث عن منهج الدكتور دراز.

وبهذا تعرف مبلغ الخطأ الذي يتعرض له الناظرون في المناسبات بين الآيات، حين يعكفون على بحث تلك الصلات الجزئية بينها بنظر قريب إلى القضيتين أو القضايا المتجاورة، غاضين أبصارهم عن هذا النظام الكلي الذي وضعت عليه السورة في جملتها: «فكم يجلب هذا النظر القاصر لصاحبه من جور عن القصد؟ وكم ينأى به عن أروع نواحي الجمال في النظم، وهل يكون مثله في ذلك إلا كمثّل امرئ عرضت عليه حلة موشية دقيقة الوشي؛ ليتأمل نقوشها، فجعل ينظر فيها خيطاً خيطاً ورقعة ورقعة، لا يجاوز بصره موضع كفه، فلما رآها يتجاور فيها الخيط الأبيض والخيط الأسود وخيوط آخر مختلف ألوانها اختلافاً قريباً أو بعيداً، لم يجد فيها من حسن الجوار بين اللون واللون ما يروقه، ولكنه لو مد بصره أبعد من ذلك إلى طوائف من نقوشها لرأى من حسن التشاكل بين الجملة والجملة، ما لم يره بين الواحد والواحد، ولتين له

من موقع كل لون في مجموعته بإزاء كل لون في المجموعة الأخرى ، ما لم يتبين له من قبل حتى إذا ألقى على الحلة كلها نظرة جامعة تنتظم أطرافها وأوساطها، بدا له من تناسق أشكالها ودقة صنعتها ما هو أبهى وأبهى، فكذاك ينبغي أن يصنع الناظر في تدبره لنظم السورة من سور القرآن^(١).

وجاء بعد ذلك الدكتور محمد البهي الذي أخرج لنا تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم مطبقاً فيه الفكرة الموضوعية بكل وضوح وبيان.

وقبل أن يبدأ في تفسيره كتب كتاباً بعنوان: «نحو القرآن» تحدث فيه عن الموضوعية فيقول: «كلما كان مصدر التوجيه موضوعياً كلما كان أقرب إلى التعبير عن المستوى الإنساني الرفيع في التفكير وفي الذوق وفي الإرادة وفي العمل، وفي الوقت نفسه كلما بعد أن يكون في مقدور الإنسان المتوسط، ويكاد يكون خاصاً بأصحاب المواهب، والمنفردين في نشاط الإنسان الفكري والذوقي والإرادي أو العملي، فإذا خلص مصدر التوجيه لموضوعية التوجيه ولموضوعية المبادئ التي تصور القيم الرفيعة في الفكر الإنساني، وفي صفاء العلاقات واتسامها بجمال الإنسانية، وفي العمل والتطبيق وبعده عن الضلال والحيرة. كان هذا المصدر فوق طاقة البشر ، وبالتالي كان معجزاً للإنسان مهما استعان في مثله بآخرين معه في الطاقة والقدرة على الإنتاج.

وحينئذ يقال: إن هذا المصدر معجز، كما يقال إن الذي يدعو لما فيه، يدعو بتكليف من قوة فوق قوة الإنسان وليس من ذاته، وقد اختير هذا الداعي من تلك القوة المتفوقة؛ لأداء رسالة الدعوة إليه فهو رسول وما يدعو إليه رسالة، وإذا ثبت أن رسالة الله التي أرسل بها رسول لم تزل تصور موضوعية التوجيه البشري فيها؛ لخلوها من التحريف، فإنها عندئذ تكون الأصل أيضاً في بناء الحضارة الإنسانية، أي في بناء ذلك الإطار الذي يضم كل قيمة رفيعة يسعى إليها الإنسان»^(٢).

وأفاض الدكتور البهي - عليه رحمة الله ورضوانه - في بيان موضوعية التفسير

(١) النبأ العظيم «نظرات جديدة في القرآن» د. محمد عبد الله دراز: (ص ١٥٣ - ١٥٤)، مطبعة السعادة، القاهرة.

(٢) «نحو القرآن» د. محمد البهي: (ص ٧)، ط - مكتبة وهبه.

في هذا الكتاب كل إفاضة وبيان، ثم إنجه إلى كتابة التفسير على هذا النحو الذي وضعه، فكان صاحب الفكرة ومطبقها بكل وضوح، ولكنه قدم لذلك بمقدمة هادفة إلى تقريب الفكرة إلى كل الأذهان، فقال: «إذا كان المتقدمون من علماء المسلمين خدموا القرآن الكريم بتجليه معاني كلماته وآياته. وبيان موقعها في فصاحة العرب في الإسلوب والتراكيب، والإعجاز. واستخلاص الأحكام الفقهية منها والاستدلال بها على بعض الآراء والاتجاهات في العقيدة والمذاهب الكلامية للطوائف المختلفة. فإن ذلك لم يكن الطريق الأفضل الذي يشير إلى القيمة الذاتية الحقيقية للقرآن، كدليل صادق على رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام، وإنما كان أشبه بتوضيح مفكك للهداية الإلهية، وربما كان التفسير الموضوعي، أو استخلاص جوانب هذه الهداية، بحيث تحدد أهداف الرسالة، هو السبيل الأسير للإيمان بمستواها الرفيع الذي يعجز عنه البشر، ومحاولة التفسير الموضوعي لم تحظ لديهم، بمثل ما حظي عندهم، ووقوفهم عند حد الآيات. والعناية بتراكيبها. وارتباط اللاحق بالسابق.

والتفسير الموضوعي ليس تفسير جملة من الآيات. ولا استخلاص مضمونها في وحدة قرآنية واحدة، وإنما هو استخلاص مضمون الكتاب ككل، من نظرة موضوعية شاملة مرة. أو استخلاص موضوع محدد: كمنهج القرآن في تطوير المجتمع، أو موقف القرآن من المادية، مرة أخرى. أو استخلاص هدف السورة الواحدة وما عنت بإبرازه في إطار الدعوة كلها، مرة ثالثة.

تحديد مفهوم تعريفي للفكرة الموضوعية:

كما سبق توضيح ضرورة تأخير النظر في تحديد مفهوم تعريفي للفكرة الموضوعية؛ ذلك أنه كان لا بد أن تدرج مع الفكرة وتطور معها طوراً بعد طور، حتى نستطيع استخلاص فكرة وتكوين رأي في هذا التحديد، وأستطيع الآن أن أقول أن الدكتور محمد البهي - رحمه الله - قد أسهم بشكل مباشر في تحديد هذا المفهوم مستفيداً من الأفكار السابقة عليه، ومستعيناً بنظرته الصائبة في هذا الميدان، وإن شاب رأيه شيء بسيط من الغلو أو الغموض.

يقول الدكتور البهي: «إذا كان المتقدمون من علماء المسلمين خدموا القرآن بتجلية معاني كلماته وآياته، وبيان موقعها في فصاحة العرب في الإسلوب

والتركيب والإعجاز واستخلاص الأحكام الفقهية منها، والاستدلال بها على بعض الآراء والاتجاهات في العقيدة والمذاهب الكلامية للطوائف المختلفة، فإن ذلك لم يكن الطريق الأفضل الذي يشير إلى القيمة الذاتية الحقيقية للقرآن، كدليل صادق على رسالة الرسول ﷺ، وإنما كان أشبه بتوضيح مفكك للهداية الإلهية، وربما كان التفسير الموضوعي، أو استخلاص جوانب هذه الهداية، وربما كان بحيث تحدد أهداف الرسالة، هو السبيل الأسير للإيمان بمستواها الرفيع الذي يعجز عنه البشر.

ومحاولة التفسير الموضوعي لم تحظ لديهم بمثل ما حظي عندهم، ووقوفهم عند حد الآيات، والعناية بتراكيبها، وارتباط اللاحق منها بالسابق، والتفسير الموضوعي ليس تفسير جملة من الآيات، ولا استخلاص مضمونها في وحدة قرآنية واحدة، وإنما هو استخلاص مضمون الكتاب ككل من نظرة موضوعية شاملة مرة، أو استخلاص موضوع محدد كمنهج القرآن في تطوير المجتمع، أو موقف القرآن من المادية مرة أخرى، أو استخلاص هدف السورة الواحدة، وما عنيت بإبرازه في إطار الدعوة كلها مرة ثالثة^(١).

وكأن مراد الدكتور البهي هنا، القول بأن هذه الفكرة تطلق ويراد بها آيات السورة الواحدة، وتكوينها فكرة واحدة وتطلق، ويراد بها الموضوع الواحد المفرق في أكثر من سورة، ثم يعطي في النهاية تكاملاً موضوعياً للقرآن؛ لأن روح القرآن الأسر بروعته الناصع بفكرته، قد جاء على نسق فريد معجز بتركيبه، كما هو معجز بآياته وألفاظه، والشيء الذي لا أتفق فيه مع الدكتور البهي، أو الغامض في كلامه: أنه جعل خدمة العلماء السابقين على اختلاف أنواعها أنها لم تكن الطريق الأفضل الذي يشير إلى القيمة الذاتية الحقيقية للقرآن، وإنما أشبه بتوضيح مفكك للهداية، وهذا لا يسلم له على إطلاقه.

وعندي أن هؤلاء العلماء قد خدموا القرآن خدمة أو خدمات جليلة، لكن الشيء الذي كنا لا نراه مناسباً فيهم: الإغراق في المباحث الكلامية أو اللفظية أو البلاغية بشكل يبعد الناظر فيه عن الهدف الإلهي، الذي جاء به القرآن، وهو بنص القرآن: الهداية للتي هي أقوم، ولو أضاف الدكتور البهي جهده وفهمه

(١) «نحو القرآن» د. محمد البهي: (ص ٨٩)، ط - وهبه القاهرة.

وتحيده للفكرة الموضوعية لمن سبقه؛ لتضافرت الجهود العلمية بغية الوصول إلى هدف واحد.

أقول لو فعل ذلك لكان أجدى وأوضح، وأقرب إلى الاتفاق على منهج واحد، خصوصاً وقد سبقه الشيخ أمين الخولي في كتابه «مناهج تجديد»، الذي قامت بدراسته بنت الشاطي، فقالت عند تناولها للتفسير البياني: «والأصل في منهج التفسير الأدبي - كما تلقينته عن أستاذي - هو التناول الموضوعي، الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه، فيجمع كل ما في القرآن عنه»، إلى أن قالت: «واتجه بحاولتي اليوم إلى تطبيق المنهج في تفسير بعض سور قصار، ملحوظ فيها وحدة الموضوع». كما سبق أن أشرت عند الكلام عن الدكتور بنت الشاطي.

وتأخذ الفكرة طريقها للانتشار لدى الدكتور محمد محمود حجازي - رحمه الله -، فيصدر في الوحدة الموضوعية في القرآن كتاباً هو في الأصل رسالة دكتوراه، يحدد فيه بشكل واضح غرضه من الوحدة الموضوعية، كفهم جزئاً للفكرة كما سيتضح.

فيعرف الوحدة الموضوعية: بأنها مركب وصفي، ومعناها: إتحاد الموضوع الذي ذكر متناً، وأنه لا تباين فيه، ولا اختلاف، بل يؤلف وحدة موضوعية له كاملة، كما نقول بعبارة أخرى - وحدة الموضوع - وأما الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم فالمراد بها: البحث عن القضايا الخاصة التي عرض لها القرآن في سورة المختلفة؛ ليظهر ما فيها من معان خاصة تتعلق بالموضوع العام الذي نبهته؛ لنحقق الهدف، وهو الوحدة الموضوعية في القرآن. ثم يتوصل بعد بحث وتحقيق في قضية السورة الواحدة كوحدة موضوعية إلى عدة حقائق أوردها على النحو التالي:

«ويمكننا أن نقول استناداً لما رويناه من آراء جهابذة العلماء، وبما قمنا به من أبحاث أن:

- ١ - السورة الواحدة وحدة كاملة لها هدف واحد، قد تستيع أغراضاً مختلفة.
- ٢ - السورة الواحدة لها طابع خاص في اللفظ والسياق والفواصل وختام الآيات، ولها في الوصول إلى هدفها طرق خاصة.

٣ - كل موضوع ذكر في السورة سواء كان قصة أو غيرها، فهو مناسب كل المناسبة للسورة ولا بد منه.

٤ - إذا كرر الموضوع الواحد، فهو في كل سورة يناسبها شكلاً وموضوعاً.

٥ - لم تكرر القصة في سورة واحدة أبداً^(١).

وعندما نعمق النظر في كلام أستاذنا الدكتور حجازي: نجد أنه جمع في كلامه ويحثه بين الفكرة الجزئية وهي وحدة الموضوع أو الوحدة الموضوعية، وبين الفكرة الكلية وهي ما عبر عنها في فقرة رقم (٤)، فيتحقق لدينا ما قاله الدكتور البهي، وهو ما سبق ذكره آنفاً؛ لنصل بذلك إلى تحديد تعريفي للفكرة؛ لكي تأخذ طريقاً آخر في التطبيق الأكثر انتشاراً، وذيوياً، ومنهجية لدى المشتغلين بالدراسات القرآنية.

وهنا نجد باحثاً ومفسراً جعل من هذه الفكرة أساساً لمنهجه في التفسير، هو سيد قطب رحمه الله تعالى حيث وضعها موضع التطبيق في تفسيره «الظلال»، فهو لا يتناول تفسير سورة إلا إذا استعرضها موضوعياً، بشكل يتفق كثيراً مع سابقه.

فيقول عن سورة البقرة: «ومن ثم يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة من سورته شخصية مميزة، شخصية لها روح يعيش معها القلب، كما لو كان يعيش مع روح حي يميز الملامح والسمات والأنفاس، ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص، ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو، ولها إيقاع موسيقي خاص، إذا تغير في ثانياً السياق، فإنما يتغير المناسبة موضوعية خاصة، وهذا طابع عام في سور القرآن جميعاً، ولا يشذ عن هذه القاعدة طوال السور كهذه السورة»^(٢).

من هنا لا يصح أن ننكر جهود مخلصة قديماً وحديثاً أسهمت في إبراز الوحدة الموضوعية، ولا يرد على الخاطر بشكل قاطع أن هناك اختلافاً في

(١) «الوحدة الموضوعية» د. محمد محمود حجازي: (ص ٥٢، ٥٣)، ط - دار الكتب الحديثة، القاهرة.

(٢) في ظلال القرآن: (١/ ٢٣)، ط - السابعة دار المعرفة، بيروت.

وجهات النظر، أو تنافراً في المنهج الموضوعي، فكل محاولة تدل في حقيقتها على إخلاص وفكر وصدق يأخذ بيدنا؛ ليضعنا أمام هذا المنهج الذي لا يعدو أن يكون منهجاً جديداً قديماً من مناهج البحث في إعجاز القرآن، وهذا ما أجمع عليه أهل العلم الفاهقين والدارسين، وجهرت به أصواتهم أو كتاباتهم، مما دفع الباحثين في هذا الميدان إلى إخراج نتائجهم العلمي في تفسير القرآن بهذه المسميات الواضحة، فهذا هو الدكتور حسن باجودة يخرج لنا ضمن جهوده العلمية في سورة من سور القرآن بعنوان: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف.

ولقد نلاحظ أنه قد غلبت عليه الناحية الفنية اللغوية من ناحية صناعية باعتباره أستاذاً للدراسات القرآنية البيانية، فيقول: «المراد بالوحدة الموضوعية: أن يكون العمل الفني متماسكاً إلى أبعد درجات التماسك، بحيث أن كل جزئية تفضي إلى التي تليها، ولا يمكن حذف جزئية واحدة؛ لأن العمل الفني يستغني عنها، أو إضافة جزئية أخرى يفقر إليها، وينبغي أن نقرر ابتداءً أن القرآن الكريم يجمع أحسن ما يكون الجمع بين الناحيتين الفنية والدينية، وأن الناحية الفنية وسيلة دائمة للناحية الدينية، ويستحيل فصل الواحدة عن الأخرى»^(١).

أما الدكتور رؤوف شلبي، فقد اتجه اتجاهه مباشراً للتفسير الموضوعي في السور التي تناولها، فكان ينظر في جو السورة القرآنية وهدفها وموضوعاتها، وهو يجعل التفسير الموضوعي الذي يهتم بالموضوعات - أي الوحدة الموضوعية - يجعل هذا اللون من التفسير في حاجة إلى التفسير الموضوعي من حيث هو فكرة واضحة المعالم في تناسق وتعايق الآيات والأهداف التي ترمي إليها في السورة، أو في سور القرآن، فيقول: «إن التفسير الموضوعي يحيط الفكر الإنساني بفقه القرآن الكريم، ومنهجه في معالجة القضايا، ويوضح حاجة المسلمين إلى هذا اللون من التفسير بعيداً عن الاصطلاحات الفنية»، وقد جرى في تفسيره للسور التي شرحها على نحو لا يبعد كثيراً عن منهج سيد قطب رحمه الله تعالى إن لم يتفق معه كل الاتفاق»^(٢).

(١) الوحدة الموضوعية: (ص ٣٥)، د. حسن باجودة، ط - الثانية تهامة جدة.

(٢) تفسير الطيب من القول: (ص ٢٢، ٢٣)، د. رؤوف شلبي، ط - دار الأنصاري، القاهرة.

ولعلي بعد أن جبت هذه الآفاق جريا وراء الفكرة، ومتابعة لتطويرها، ومشاهدة لتطبيقها، أقول: إن التفسير الموضوعي، أو وحدة الموضوع أصبح حقيقة واقعة في الدراسات القرآنية الحديثة أصالة ومعرفة؛ ليجمع الناس على الحقيقة القرآنية التي تخرجهم من ضلالات الزيغ والافتراء إلى نور الهداية والاقتداء، دون عنت ولا مشقة، ودون بعد أو إكراه، فنكون بذلك قد أحسنا العلاقة بالقرآن الكريم قولاً وعملاً، فنستحق بذلك أقوم وأعدل طريق في الحياة، إذ القرآن في حقيقته: إنما هو يهدي للتي هي أقوم.

وحاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن الذي هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم على هذا النحو؛ بغية القيام ببعض حقه علينا، ومن ثم تطبيقه والعمل به في كل شأن من شؤون حياتنا، لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وأخلص من كل ما تقدم إلى القول: بأن الفكرة الموضوعية كانت مجرد فكرة ضمن أفكار المشتغلين بالقرآن، ثم أصبحت بهذا التطبيق باباً مفتوحاً لكل راغب في دراسة القرآن، دراسة هادفة محققة لغرض أساسي من نزول القرآن، ويكون هذا وفاءً بالأمانة، وقياماً بها على أحسن وجه، وخروجاً من المسؤولية عن التقصير والهجر والترك وعدم التطبيق، لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

وقد لاحظتُ أن هذا الباب قد ولجه كثير من المشتغلين بالدراسات القرآنية، فيظهر هذا من المنشور من جهودهم، وهذا يدل دلالة قاطعة على أن هؤلاء قد التقطوا الفكرة على النحو الذي عالجته ونسجوا على منوالها، وهكذا نصل إلى ما قد سعينا إليه: من أن الفكرة أصبحت حقيقة واقعة في الدراسات المعاصرة.

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

